الشيخ عثمان بن فودي
وحركته التغييرية في غرب إفريقيا

الشيخ نجف علي ميرزائي

زخرت البلاد الإفريقية بالعديد من العلماء والمفكّرين والمجاهدين الذين ساهموا وبشكل واسع في التراث الإسلامي ، وتركوا بصمات واضحة في المجالات المختلفة ، كما سجّلت صفحات التأريخ أكثر من نقطة تحوّل لهم على المسارات الحيوية في حياة الأمّة الإسلامية . غير أنّ عدداً كبيراً من هؤلاء الرجال العباقرة ظلّت حياتهم العلمية والعمليّة محجوبة عنّا ؛ وهذا إثر القناعة الكبيرة لديهم بما عند الله والتجنّب عن الحديث بما عندهم من علم جمّ أو عمل كبير من جهة ، وافتقاد الأمّة الإسلامية للمؤسسات والدوائر التي تقوم بنشر التراث الإسلامي ونقله إلى الأجيال اللّاحقة من جهة أخرى ؛ وهو ما أدّى إلى اختفاء الكثير من العطاءات العلمية والنتاجات الضخمة ، وسبّب حرمان المسلمين ـ ولو لفترة قصيرة ـ من إنجازاتهم الإصلاحية والتربوية.

إنّ الشخصيّات العلمية الإسلامية ، ولاسيّما الجهادية ، والتي أخذت على عاتقها مسؤولية الإصلاح والتوعية العامّة ؛ تُمثّل أعلاماً ومعالم تعرف الأمّة الإسلامية بها مسارها الوعر وصعاب الطريق . وباعتبارهم ورثة الأنبياء عليهم السلام ، يميّزون الطيّب من الخبيث ويرشدون إلى الهدى .

من جهة ثالثة ، منذ بزوغ شمس الإسلام وحتى يومنا هذا لم تتقاعس الأيدي المعادية لهذا الدين عن ممارسة المؤامرات والخطط الشيطانية ضدّها، ولم يترك

الحاقدون والمغرضون وسيلة إلّا ومارسوها لضربه والقضاء عليه .

إن نظرة عابرة على التاريخ تكشف عن شتّى الوسائل والأساليب التي تمّ استخدامها من قبل المتربّصين بالدين الحق لتحقيق رغباتهم الدنيئة والتي أُحبطت وأُخفقت برعاية الله الحكيم ورغم أنف الظالمين أعداء الله الذين حاولوا بكلّ جهدهم وما عندهم طمسَ ومسخَ وتشويهَ المعالم الإسلامية ، غافلين عن أنّ الله يأبى ذلك ويحكم على ما أرادوا وخطّطوا بالخسران المبين : ﴿ **يُريدون ليُطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[١] .

رائد الحركة الإصلاحية والجهادية في غرب إفريقيا

اعتزمنا على التعريف قدر المستطاع بنجم من نجوم ساطعة اختفت لفترة وراء السّحاب، ألا وهو « عثمان بن محمّد فودي[٢] ابن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد غورطو بن جبو بن محمد ثنيو بن أيوب بن بابا بن موسى المهاجر بجماعة من فوتاتُورُو إحدى عواصم الفلانيين الثلاث[٣] لما وقعت ثورة عظيمة بتلك البلاد في القرن الثالث عشر الميلادي . فهاجر موسى في جماعته على قصد الهجرة إلى الحجاز فوصل بعضهم إلى دارفوروباغرمي فاستوطنوها وتأخّر الباقون في بلاد هوسا واختلطوا بهم حتى ظهر بينهم الشيخ عثمان »[٤] .

ولد الشيخ عثمان في قرية طِغِل بأرض غُوبِرْ حوالي سنة ١١٦٩ من الهجرة النبوية[٥] ، كما قيل يوم الأحد آخر يوم من صفر عام ١١٦٨ هـ الموافق ١٥ ديسمبر [كانون الأول] عام ١٧٥٤م[٦] .

نشأ الشيخ عثمان في حجر والديه الصالحين وكان لهما فضل توجيهه إلى الدّين والعلم والعبادة ، وقد أولع بها منذ أن ناهز البلوغ ففتح الله عليه الفتوحات الغيبية وأضاء

---

(١) الصف : ٨ .

(٢) كلمة فودي معناها باللغة الفلانية : الفقيه .

(٣) هي فوتاتورو ، وفوتا جلّلو ، وفوتا ملّلى .

(٤) آدم عبدالله الآلوري ، الإسلام في نيجريا ، ص٣٥ ؛ حركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا لشيخو أحمد سعيد غلادنثي ، ص٥١ .

(٥) الإسلام في نيجريا ، ص٣٥ .

(٦) ايرام لاپيدوس ، تاريخ جوامع اسلامي ، ترجمة محمود رمضان زاده ، ج١ ، ص٦٦٠ ، وحركة اللغة العربية وآدابها في نيجريا ، ص٥١ .

قلبه بالإيمان فشاهد عجائب ملكوت السماوات والأرض فجذبه الله إلى حضرته وعمَّمه بعمامة الولاية وكساه بجلباب الكرامة فصار من أوليائه الكبار[٧] .

تلقّى الشيخ مبادئ العلم من والده ومن والدته حوّاء وجدّته رقية . فيلاحظ هنا أنّ البيت الذي خرج منه الشيخ عثمان بن فودي بيت علم لدرجة أنّ النساء فيه يؤخذ عنهنّ العلم[٨] .

تلمّذ الشيخ عند العديد من كبار العلماء وأخذ منهم شتّى الفروع العلميّة وأصولها . ولكن على ما يبدو من تدقيق في النصوص التي تناولت حياة الشيخ ، كان الشيخ جبريل أكثر أساتذته تأثيراً في حياته[٩] كما قيل عنه :

إن قيل فيّ بحسن الظنّ ما قيلا فموجة أنا من أمواج جبريلا[١٠]

كذلك يُفهم من بعض النصوص التاريخية أنّ الشيخ جبريل هذا قد سبق الشيخ عثمان في بناء الفكر الإصلاحي والتغيير الاجتماعي[١١] . ولعلّه هو الذي أرسى قواعد الثورة الإصلاحية من خلال انتقادات عنيفة للحكّام ورفضه الشديد للأوضاع السائدة في بلاده.

وقد رحل الشيخ جبريل بعد فشله إلى غُوبِر ومنها عاد للحجّ للمرّة الثانية ومكث هناك سنتين رجع بعدها إلى السودان . وبايع الشيخ عثمان مباشرة بعد عودته وقدّم له لواء النصر ، وهذا ما يكشف لنا عنه النصّ التالي :

« اعلم أن الشيخ رضي الله عنه أوّل من أقام الجهاد بهذه الأرض ووجد النصر وقد أراد ذلك قبله الحاج أسكيا بصنغى ولم يستقم له ذلك . وأراده أيضاً الشيخ جبريل وهو من شيوخه ، فلم يستقم له ذلك ، فطرده الطوارق إلى أرض غوبِرْ ، ثم ذهب إلى الحجّ فأتى الشيخ بلواء النصر ، وهو أوّل من بايع الشيخ قبل الجهاد »[١٢] .

---

(٧) عبداللطيف سعيد ، سيرة الشيخ عثمان دان فودي ، ص٢ من مقال قدّمه الكاتب بمناسبة إحياء ذكرى الشيخ في جامعة إفريقيا العالمية بالسودان .

(٨) عبدالله آدم آلوري ، الإسلام في نيجريا ، ص٣٥ .

(٩) أبو الحسن علي السماني ، تطبيق نصوص الفكر السياسي في دولة سوكوتو .

(١٠) محمّد بلّو ، إنفاق الميسور ، ص١٦٤ ـ ١٦٥ .

(١١) مكوّنات الفكر السياسي عند الشيخ عثمان بن فودي ، د . بهيجة الشاذلي ، ص٨ .

(١٢) الوزير جنيد ، ضبط الملتقطات ، ص٣٦ (مخطوطة) .

يرى البعض[١٣] أنّه حصلت بين الكتّاب مبالغة إلى حدّ ما فيما يتعلّق بعلاقة الشيخ جبريل وتلميذه الشيخ عثمان . ولكن يبدو أن أثر الشيخ جبريل الرّوحي في نفس الشيخ عثمان عميق الجذور ولم يحدث من المبالغة شيء كبير .

الشيخ عبدالله الآلوري[١٤] رحمه الله يرى من الصفات المتميّزة في الشيخ عثمان ما لم يجتمع لكثير من العلماء السابقين عليه ولا المتأخّرين عنه وهي كالتالي :

١ ـ أنّه أوّل داعية في إفريقيا قام بتغيير المنكر بقلبه ولسانه ويده . ثمّ جمع الجنود والسلاح وأقام دولة تحكم بكتاب الله وسنّة رسوله على نمط الحكومات الإسلامية الأولى في صدر الإسلام .

٢ ـ أنّه لم يشترك مع سلطاتٍ أو أمير أو ملك آخر في تأسيس دولته . إذ نجد أن الأغلبية من الجهاد بين الأفارقة اعتمدوا في حركاتهم إلى درجة كبيرة على هؤلاء .

٣ ـ لم ينتحل دعوة كالفاطمية أو المهدية مثل ما فعل ابن تومرت في حركته التي انتحل فيها الفاطمية لإقامة دولة الموحّدين في المغرب أو محمّد أحمد المهدي السوداني الذي انتحل المهدية لإقامة دولة الدراويش .

٤ ـ شارك العلماء ونجب على يديه أكثر من مئة عالم ممّن بلغوا رتبة الاجتهاد في الفقه المالكي .

٥ ـ أنّه شارك الصوفيين في تهذيب أخلاق المسلمين وسلك وأنشأ طريقة تنتمي إليه باسم « الفودية » وهي نوع من القادرية .

٦ ـ أنّه حمل السلاح وقاد الجيوش وبذلك شارك المجاهدين فهو أُمّة واحدة .

حاول السلطان الفقيه والمؤرّخ الكبير محمد بلّو أيضاً إعطاء صورة واقعية بقدر ما تستطيع العبارات والألفاظ التعبير عنها . فيما يلي نصّ الكلمات :

« اعلم أنّه نشأ عفيفاً متديّناً ذا خلال مُرضية ، نسيج وحده ، انتهت إليه الإمامة ، وضربت عليه آباط الإبل شرقاً وغرباً ، وهو علم العلماء ، ورافع لواء الدين ، أحيى

---

(١٣) فتحي المصري ، حياة الشيخ عثمان قبل الجهاد ، ص٤٧٦ .

(١٤) الإسلام في نيجريا وكذلك سيرة الشيخ عثمان دان فودي للأستاذ عبداللطيف سعيد ، ص٣ من مقال قدّمه إلى مؤتمر أقيم إحياءً لذكرى الشيخ عثمان دان فودي بالسودان وتحت إشراف جامعة إفريقيا العالمية .

السنّة وأمات البدعة ونشر العلوم وكشف الغموم ، بهر علمه العقول ، جمع بين الحقيقة والشريعة . فسّر القرآن سنين بحضرة كبار العلماء والصلحاء ، عالماً بقراءته وفنونه من بيان وأحكام وناسخ ومنسوخ ، مع إمامته في الحديث وفقهه في غريبه ورجاله وفي أصول الدين والذبّ عن السنّة ودفع الإشكال ، قائماً بالحق ، صحيح النظر ، متدرّباً في تعليم الغوامض . إماماً في نقول الفقهية ، متعبّداً ، ناسكاً ، تصدّى للتدريس وبثّ العلم ، فملأ القطر الغربي معارفاً وتلاميذاً . يقف أهل زمانه عندما يقول . وكان حامل لواء التحصيل وعليه مدار الشورى والفتوى معظّماً عند الخاصّة والعامة ، مجدّداً على رأس هذا القرن ، خطيباً ، بليغاً ، شاعراً ، فصيحاً ، فاضلاً ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، كريم الصحبة ، محقّقاً شديد العارضة ، مقطوعاً بولايته وقطبانيته ، كثير الحياد والشفقة على الخلق ، متواضعاً ، يرى نفسه كأقلّ الحشرات وقّافاً عند حدود الشريعة ، آلفاً مألوفاً ، لقي من التعظيم والمحبّة من الخلق ما لم يُعهد ، حتى كان أحبّ الناس إلى أنفسهم ، يتزاحمون عليه مع طلاقة وحسن خلق وبشاشة وكان حليماً رؤوفاً بالمؤمنين»[١٥] .

دور النهضة العثمانية في إصلاح المجتمع الإفريقي

كان المجتمع الحوساوي وغيره من المجتمعات والقبائل الإفريقية المحيطة بالشيخ عثمان دان فودي تعاني من انتشار واسع للتقاليد السيّئة والعادات الخرافية . وهذه العادات القبيحة والبدع الدينية سبّبت ـ مع أن الإسلام قد دخل المنطقة منذ أمد بعيد ـ احتجاب نور الإسلام . وظلّت حياة المجتمع الإسلامي فارغة من حقيقة الدين وزاخرة بما كان الإسلام بريئاً منه . كذلك العقائد الوثنية انتشرت في كلّ صوب وحدب والناس في مثل هذه البيئة الغارقة في الجهل والتأخّر الفكري ، وبطبيعة الحال لم يكونوا يعرفون طريقاً يحقق لهم السعادة في حياتهم وعاقبتهم . معلوم أنّ التيّارات والزمر الحاكمة لم تكن تحاول إنقاذ المسلمين من مثل هذه الأجواء السيئة ، وذلك لأنّهم كانوا يتبعون هواهم ويسعون لتحقيق مآربهم ومصالحهم الدنيوية ولذّاتهم الزائلة ، وهذا ما لا يتمّ لهم إلّا مع جهل الرعية وتخلّفها .

على الرغم من انتشار الإسلام الواسع في المدن والأوساط الهوساوية في الأرياف إلّا أن تيّاراً وثنياً ـ كما ذكرنا ـ ظلّ يصاحب حركة التحوّل الواسعة إلى الإسلام عبر

---

(١٥) محمد بلّو ، إنفاق الميسور ، ص٦٢ .

مراحلها المختلفة ، وممّا يؤكّد ذلك ما يذكره الشيخ محمد بلّو في كتابه « الإنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور » حيث قال :

« لقد حدّثونا أن لسلاطينهم وأمرائهم مواطنَ يركبون إليها ويذبحون بها ويرشّون بالدماء على أبواب قريتهم ولهم بيوت معظّمة فيها حيات وأشياء يذبحون لها ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيّام الجاهلية . ولهم في ذلك أعياد يجتمعون فيها هم وقرّاؤهم وسلاطينهم وعامّتهم لا يحضرها غيرهم ، ويسمّون ذلك عادة البلد ويزعمون أن ذلك صدقات ليستعينوا بها على جلب المصالح ودرء المفاسد ، فإذا لم تفعل تلك العادة بطلت معايشهم وقلّت أرزاقهم وضعفت شوكتهم ، وتوارثوا هذه العادات كابراً عن كابر »[١٦] .

وقد وردت إشارات مختلفة في مصادر متفرّقة تدلّ على تقديسهم بعض الأشجار والحجارة وممارستهم السحر بنوعيه الأبيض والأسود وانتشار ذلك بين الناس جميعاً وإن كان انتشاره بين النساء أكثر .

وبطبيعة الحال إنّ هذه الممارسات وغيرها لا تخرج من إطار الديانات الوثنية القديمة في القارة الإفريقية ، سواء في الشمال عند بعض الطوارق حيث شاعت من أزمان قديمة عبادة الطبيعة والكهوف والصخور والجبال والشجر ، أو في الجنوب حيث سادت حضارات وقبايل « نوك » و« إيفي » في بلاد « يوربا » ومناطق الوثنيين الذين ظلّوا في صراع متواصل مع مدن الهوسا المجاورة .

الديانة الوثنية القديمة في إفريقيا السوداء تقوم على أسس خاصّة حيث تحتوي المجموعة الاجتماعية على الأحياء والأموات وكلّ قبيلة تحمى بواسطة أرواح أسلافها وينفرد الملك في النظام السياسي المتّصل بهذه الدّيانات بدور الوسيط في التعامل مع هذه الأرواح[١٧] .

كذلك قام تجّار الهوسا بفتح طرق وممّرات في غابات الجنوب ، الأمر الذي أدّى إلى تسرّب المعتقدات الوثنية إلى الامارات الشمالية المسلمة وظهرت بعض تلك المعتقدات على صور بدع مختلفة ، وفي ذلك يقول الشيخ الداعية « آدم عبدالله الآلوري» :

---

(١٦) محمد بلّو ، إنفاق الميسور ، ص ٣٤ .

(١٧) الجذور التاريخية لحضارات الهوسا ، مهدي ساتي صالح ، ضمن مقال قدّمه الكاتب إلى مؤتمر لإحياء ذكرى الشيخ بجامعة إفريقيا العالمية في السودان .

« وشرّ ما في البدعة أنّها تنتشر بسرعة هائلة حتى بدأت مثل هذه العادة تجتاز حدود بلاد يوربا إلى بلاد الهوسا »[١٨] .

وفي خضمّ هذا الجهل المدقع والتأخّر والتخلّف وفقدان الوعي الإسلامي ، شهدت الساحة الإسلامية ظهور عدد من العلماء المجاهدين والمصلحين المجدّدين الذين صلحت بهم إلى حدٍّ ما أمور الدين وحسنت شؤون المسلمين وقامت حركات إصلاحية وحكومات تقوم على أُسس دينية يقودها عالم ديني .

ممّا لا جدال فيه أنّ أهم هذه الحركات الجهادية الإسلامية في غرب إفريقيا ، حركة ونهضة الشيخ عثمان بن فودي . ولقد لعبت هذه الحركة الإصلاحية ـ كما سنعرف بعد قليل ـ دوراً هامّاً في إزاحة الأنظمة السياسية الفاسدة وإماتة التقاليد السيئة والبدع المفرطة في بلاد الهوسا وبقيّة بلاد السودان الأوسط وإرساء دعائم الشريعة الإسلامية في تلك البلاد .

وثاني أهم تلك الحركات الإسلامية والتي تزامن ظهورها مع حركة الشيخ عثمان دان فودي والتي تأثّرت بأفكارها واستراتيجيتها ، حركة الشيخ أحمد بن سعيد الماسنى في بلاد ماسينا (في جمهورية مالي حالياً) . لقد استطاعت هذه الحركة بالرغم من قصر عمرها السياسي إقامة نظام سياسي إسلامي وبناء هيكل الدولة الإسلامية في تلك المنطقة متّخذةً من « حمد الله » عاصمة لها . ولقد تأثّرت هذه الحركة والتي استمدّت شرعيتها من جهاد الشيخ عثمان دان فودي قبل انشقاقها ولعدّة أسباب سياسية و«لوجستية» و« استراتيجية » ، بأفكار ومفاهيم وتصوّرات قادة الجهاد الإسلامي في بلاد هوسا ؛ وبالأخص الشيخين عثمان بن فودي وأخيه عبدالله بن فودي (ت١٨٢٩م)[١٩] .

أمّا الحركة الجهادية الثالثة والتي لعبت دوراً هامّاً أيضاً في توطيد دعائم الإسلام في غرب إفريقيا فهي حركة الشيخ عمر بن سعيد الفوتى (ت ١٨٦٤م) في بلاد فوتاجالون ومناطق التكرور . لقد استطاعت هذه الحركة والتي اعتمدت على

---

(١٨) عبدالله آدم الآلوري ، الإسلام وتقاليد الجاهلية (نقلاً عن كتاب الشيخ عثمان بن فودي تأليف جامعة إفريقيا العالمية ، ص٥) . للاطّلاع الأكثر على التقاليد الخرافية والوثنية في البيئة التي كان الشيخ ظهر فيها راجع المصادر التي سوف نذكرها آخر المقال .

(١٩) أحمد محمّد كاني ، حركة الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، ص١٦ .

(الأيديولوجية) النجانية كمنهج عقائدي لها في إقامة دولة إسلامية واكتساح مناطق كبيرة في بلاد مالي وأجزاء كبيرة من الجزء الجنوبي من غرب إفريقيا المتاخم لمالي . ويتّفق كثير من المؤرّخين على أنّ حركة الشيخ عمر بن سعيد الفوتي قد استفادت أكثر من غيرها من ثمرات جهاد الشيخ عثمان دان فودي السياسية والمنهجية والاستراتيجية(٢٠).

وأمّا الشيخ عثمان ـ أو على حدّ تعبير أتباعه في نيجريا « شهو عثمان » ـ فبدأ دعوته الإسلامية زهاء عام ١٧٧٥م وذلك حينما بلغ من العمر عشرين سنة ، منذ البداية كان الشيخ يلاحظ البيئة الفاسدة المحيطة به بدقّة وتأمّل ، ومنذ ذلك الوقت اختلجت في باله فكرة الإصلاح والتغيير .

ولكن وكما يذكر لنا الشيخ عبدالله بن فودي في كتابه « تزيين الورقات »(٢١) أنّ الفترة التي قضاها هو وأخوه الأكبر الشيخ عثمان بن فودي مع الشيخ جبريل بن عمر السالف ذكره كانت من أهمّ الفترات في حياتهما الفكرية والروحية والسياسية لأنّه وكما صرّح الشيخ عثمان نفسه في أكثر من مرّة أنّ للشيخ جبريل عمر أثراً كبيراً في حركته الجهادية لأن الشيخ جبريل ـ على حسب تعبير الشيخ عثمان بن فودي ـ هو الذي بدأ حركة الإصلاح في السودان الأوسط . فلقد كان له القدح المعلى في إيقاظ الهمم الراكدة ونشر الدعوة الإسلامية وفي إحياء السنّة المحمّدية وإخماد البدع الشيطانية وفي تنوير المجتمع في تلك المنطقة(٢٢) .

إنّ قراءة مستوعبة لجهاد الشيخ سرعان ما تثبت لنا أن الشيخ عثمان بن فودي اتّبع في محاولته لإصلاح الأوضاع الدينية والاجتماعية والسياسية في هذه البلاد ، منهجاً علمياً دقيقاً وذلك بتركيزه على قضايا رئيسية كالآتي :

أوّلاً : إيلاء اهتمام كبير للعامّة بتعليمهم أُصول الدين ومبادئ التوحيد والابتعاد بهم عن البدع الشيطانية والعادات الجاهلية ، وعدم الخلط بين التقاليد الوثنية والتعاليم الإسلامية الصحيحة . وله مؤلّفات كثيرة تتعرّض لهذه المشكلة وتقدّم الأحكام الإسلامية الأصيلة في أكثر من مجال وموضوع اجتماعي أو ديني أو سياسي .

---

(٢٠) المصدر السابق ، ص١٧ .

(٢١) عبدالله بن فودي ، تزيين الورقات بجمع بعض مالي من الأبيات ، ص٢٩ / مخطوط .

(٢٢) عثمان بن فودي ، الغليل عمّا أشكل من كلام شيخ شيوخنا جبريل ، زاريا ٩ / ٢ (مخطوطة) .

وسيأتي الكلام عن مؤلّفاته .

ثانياً : تكوين مجموعة من الحواريين والأتباع المخلصين أو ما أسماهم « الطلبة » لنشر أفكاره وآرائه وتعاليمه الإصلاحية بهدف فضح دعاوي « علماء السوء » ورفع الغشاوة عن أعين كثير من أتباعهم ، كذلك محاربة المفاهيم المخلوطة في أذهان العامّة والتي خلّفتها طبقة علماء السلطان والتي استغلّت الديانة الإسلامية استغلالاً كبيراً بهدف الحفاظ على مصالحها الدنيوية .

مراحل ما قبل الحركة الجهادية

بعد البحث الشامل في حركة الشيخ عثمان يتّضح لنا أنه لم يطلق فكرته الإصلاحية والجهادية ، اعتباطياً وعفوياً وإنّما تطوّر بحركته على أساس المنهجية ، والتنظيم والمرحلية ، من هنا قام الشيخ وقبل الجهاد المسلّح بجهاد الكلمة . حاول هو ومن معه من العلماء والدعاة المسلمين بكلّ ما عندهم من قدرات علمية وأساليب دعوية إسلامية لتوعية وتثقيف المسلمين وغيرهم من الذين كانوا على الديانة الوثنية أو المرتدين عن الإسلام الذين عدلوا عن الدين من جرّاء اختلاطهم بالكفّار ويسمّون بـ « ماغنداوي » .

إن مرحلة ما قبل الجهاد العسكري والتي تدعى أحياناً جهاد الكلمة أو « الجهاد القولي » تمثّل المرحلة التكوينية والتي عليها قامت الحركة التغييرية الكبرى . بدأت هذه الفترة عام ١٧٧٤م واستمرّت حتى عام ١٨٠٣م ، ومن سماتها البارزة تركيز الشيخ عثمان بن فودي على دعوة الناس بكافّة طبقاتهم إلى الله وتعليمهم المبادئ الأساسية للإسلام ومحو الأميّة الدينية ورفع مستوى الوعي الاجتماعي . وقد شهدت هذه المرحلة ظهور جماعة الشيخ عثمان دان فودي كجماعة ذات أهداف اجتماعية ، ودينية ، وسياسية تهدف إلى إصلاح المجتمع الهوسوي وما حوله .

كما أن كتابات الشيخ التي ألّفها في هذه الفترة تعبّر وبشكل دقيق عن سمات تلك الفترة. وتعرب أيضاً عن الأهداف والدعوات والإصلاحات التي كان الشيخ وجماعته يهدفون إليها . ولا شك إنّ كثافة وكثرة هذه النشاطات وسعة الدعوة تعود إلى الإطار الواسع للانحرافات الدينية والخرافات الاجتماعية وانتشار الوثنية الواسع في تلك البلاد.

يجدر بنا التنويه هنا بأن الشيخ عثمان بنفسه كان يتجوّل ما بين القرى والمدن

ويحاول تعليم وتوعية الناس وإخراجهم من ظلمات الخرافات والتقاليد والبدع التي لا تمتّ إلى الإسلام بصلة .

لا يسعنا في هذا المجال الضيّق أن نتناول إلّا بعضاً من الأساليب التربوية والتعليمية التي كان الشيخ يستخدمها وكان لها دورها الكبير في نجاح عملية الدعوة من قبل الشيخ .

كان لحاشية الشيخ دور كبير في عملية الدعوة ، حيث استخدم الشيخ بعض الأقرباء ، مثل عيسى بن الشيخ عثمان بن فودي وابنته (أسماء) في نشر دعوته وإيصال المعلومات المطلوبة من خلال الترجمة .

على أن الشعر والموشّحات الدينية كان لها ـ ومن دون شك ـ الدور الكبير والمصيري في نجاح دعوة الشيخ ، حيث أثبتت بعض الدراسات الحديثة أنّ الشيخ وجماعته كانوا يستخدمون (الموشّحات الشعرية) والتي كان لها مضمونا دينيا وإسلاميا لإصلاح العقائد وإزالة الانحرافات الفكرية وبثّ الفكر الإسلامي الخالي من أي خرافة وبدعة .

لقد تركت طريقة الشيخ وجماعته في الدعوة والوعظ والإرشاد ، بصمات ملحوظة في حياة الناس نجد أثرها بعد مرور قرنين من الزمن . ولا زال الوعظ الديني المقرون باستخدام الشعر الملتزم منتشراً حتى اليوم في نيجيريا وبخاصة المناطق الشمالية منها .

النصوص التي تركها الشيخ وجماعته لاسيما أخوه وأبناؤه وأتباعه زاخرة بالشعر الديني الملتزم ، ولكثيرٍ منهم دواوين شعرية .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانا نصب أعين الشيخ وأتباعه في مرحلة سبقت الجهاد والكفاح المسلّح ، وكانوا يطبّقونها بدقّة بالغة وبكلّ ما أوتوا من قوة وما عندهم من أساليب علمية ، وإمكانات مادّية .

في بعض كتبه ينصّ الشيخ على سابقية أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر :

« وأمّا سبب القتال الذي وقع بيننا وبين ملوك حوس (= الهوسا) وأتباعهم ، فاعلم أنّ ملك غُوبِرْ يُنفا هو الذي ابتدأ ذلك الأمر ، وجاء إلينا بجيوشه فتلقيناه بجيوشنا ،

فهزم الله جيوشه ، فهرب ورجع إلى حصنه ذليلاً مغلوباً ، وذلّ بذلك جميع الكفّار في [بلاد] الهوسا ، فتغيّظوا لذلك وجعل كلّ سلطان يقتل المسلمين في بلاده فوقعت الحرب بينهم ، فاستأصل الله الكفّار إنجازاً لوعده في نصرة دينه ونبيّه وكنّا بعد طرد ملك غوبر ينفا ، أرسلنا إلى جميع ملوك حوسا (= الهوسا) أن ينصروا دين الله ويعينونا في إقامة الدين فتكبّروا وأبوا فاستأصلهم الله فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين »[٢٣] .

وبذلك قام الشيخ بإتمام الحجّة عليهم وجاءهم بالبيّنة وهذا قبل الهجوم المسلّح عليهم وإعلان الجهاد ضدّهم .

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ وجهة نظر الشيخ[٢٤] حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كانت واسعة وشاملة جدّاً ولم تقتصر على المفهوم المألوف والاعتيادي عند كثير من الناس ، وتجتاز الحدود العادية لتصل إلى نصيحة الملوك والسلاطين ودعوتهم إلى الشريعة الإسلامية ، الأمر الذي أدّى إلى غضب الكثير من الجائرين والظالمين ، منهم ملك غُوبِرْ « ينفا » الّذي انهزم في مواجهة عنيفة تمثّل أُولى المواجهات والعمليات العسكرية للشيخ والجماعة (مصطلح كان أتباع الشيخ يُدعون به) ضدّ ملوك الهوسا .

لاشكّ أنّ الهجرة من دار الكفر إلى أرض يحفظ المسلم دينه فيها من الضياع ، تشكّل أمراً أساسياً في الحركة الدينية وفي المسيرة العقائدية البشرية حفاظاً على المبدأ والفكر من الانهيار والتداعي تحت ضغوط خارجية أو أهواء وإغراءات داخلية نابعة من مشاهد السوء في المجتمع المنحرف عن الخط الصحيح.

من هنا وانطلاقاً من الأسس والأصول الدينية والترغيب القرآني لظاهرة الهجرة شكّل هذا الأمر قاعدة رئيسية نشأت الحركة التجديدية والتغييرية العثمانية عليها وكانت موضع اهتمام كبيرٍ من قِبل الشيخ عثمان دان فودي . بقطع النظر عن إيضاح هذا الأمر وأهمّيته البالغة عنده ، الأمر الذي عبّر عنه في عشرات المواطن من مؤلّفاته.

قام الشيخ بتأليف أكثر من كتاب حول ما يتّصل بأمر الهجرة ، منها كتاب « بيان

---

(٢٣) الشيخ عثمان بن فودي ، نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله في أمور الزمان ، ص١٠٤.

(٢٤) بحثاً عن معلومات حول رؤية الشيخ عن هذا الأمر ، راجع كتاب : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي يقع في ١٠٣ صفحة ويعتبر من أهمّ مؤلّفات الشيخ في هذه القضيّة .

وجوب الهجرة على العباد » والذي نقل إلى اللغة الانكليزية وأظن الهوسوية أيضاً . وكتاب « بيان وجوب الهجرة وتحريم الموالاة للكفرة » في ١٧٥ صفحة .

لقد كان الشيخ يحضّ المسلمين وجماعته على الهجرة حينما لم تكن الظروف الملائمة للجهاد والكفاح المسلّح متوافرة لديهم ، ففي مرحلة ما قبل النضال المسلّح كان ابن فودي يحذّر سلاطين هوسا كلّ الحذر ويخشى على الإسلام والمسلمين من بطشهم فلا يتعرّض هو بنفسه ولا جماعته لهم في مجالسهم العامّة أو الخاصّة . كما كان الشيخ يحذّر المتحمّسين من طلبته وأعوانه المدعوّين بـ« الجماعة » من أن يثيروا غضب السلاطين عليهم بقولٍ أو فعلٍ . يقول الشيخ عثمان في كتابه « بيان وجوب الهجرة على العباد » :

« لأنّ حكم البلد حكم سلطان بلا خلاف ، إن كان مسلماً كان البلد بلد إسلام ، وإن كان كافراً كان البلد بلد كفر ، يجب الفرار منه إلى غيره . . . »[٢٥] .

حدثت الهجرة الكبرى في حياة الشيخ حوالي عام ١٨٠٤م وذلك عندما انتابت ينفا ملك مملكة غُوبر حالة كبيرة من الخوف والقلق على سلطنته وحكمه من قبل « الجماعة» فأمر الشيخ عثمان دان فودي أن يبتعد بأهله عن « طِغِل » لتغير قوّات السلطان على القرية وتؤدّب أهلها ـ على حدّ تعبير الملك ـ فما كان من الشيخ إلّا الرفض القاطع في التخلّي عن جماعته ، فأبدى استعداده ليهاجر بهم عن أرض ينفا إلى مكان آخر ، ولم يُثنه عن عزمه هذا تنازل ينفا عن رغبته وطلبه أن يبقى ابن فودي وجماعته آمنين في طِغِل ، وذلك لأنّ الجماعة ما كانوا ليثقوا في وعود ينفا .

وكانت هجرة ابن فودي وجماعته ، التي ابتدأت في فبراير (شباط) من عام ١٨٠٤م[٢٦] تطوّرت فيما بعد إلى اشتباكات محلّية مع أنصار ينفا حتى أعلن الجهاد في سبيل الله واستمرّت العمليات الجهادية حتى سقطت عاصمة غوبر في أيدي المجاهدين وقتل سلطانها يُنفا عام ١٨٠٨ .

هجرة الشيخ هذه لم تكن مجرّد مسألة مغادرة البلاد إلى مكان آخر ، وذلك لأنّ السلطان يُنفا أوفد إلى الشيخ من يبلّغه ما نصّه :

---

(٢٥) بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة الجهاد ، ص١٤ .

(٢٦) فتحي حسن المصري، مقدّمة له على تحقيق منه لكتاب «بيان وجوب الهجرة على العباد».

« اخرج من بلدي أنت وأولادك ونساؤك وإخوتك ولا تخرج مع أحد غيرهم من جماعتك وفارقهم »[٢٧] .

وبدلاً من أن يؤدّي هذا التهديد إلى اضطراب وقلق في نفس الشيخ ويحمله على التضرّع والتوسّل ، فأجابه الشيخ إجابة مؤمن بأنّ أرض الله واسعة ، فردَّ عليه قائلاً :

« إنّي لا أفارق جماعتي ، ولكنّي أخرج من بلدك مع كلّ من يريد الخروج معي ، ومن يريد الإقامة فليقم »[٢٨] .

من هنا خاف يُنفا من مغبّة هذا الأمر ، فندم وطلب من الشيخ أن يبقى هو وجماعته المتألّفة من الفلانيين والهوسا . حينها رفض الشيخ وجماعته البقاء بصرامة وأقدموا على الهجرة ، فانتشر نبأ هجرة الشيخ في جميع أنحاء المملكة وسرعان ما أخذ أتباعه وموالوه يهاجرون إلى مملكة (كَبِ) ، فاستمرّ تدفّق المهاجرون على المهجر أو المنفى مدّة شهرين ، الأمر الذي أقلق يُنفا وأقضّ مضجعه ، فلم يسعه إلّا إصدار أوامر بمنع الهجرة ، ولمّا لم تجدِ أوامره نصَب حرّاساً على الطرق الرئيسيّة ليقطعوا الطريق على المهاجرين وينهبوا أموالهم ويقتلوهم خاصة إذا ما كانوا من الشعب الفلاني والذي كان الشيخ نفسه منه .

هذه الاجراءات الإرهابية لم تضعف عزيمتهم التي قوامها الإيمان بالله . وانّما عزّز مواقفهم ورفع معنوياتهم إلى درجة عاهدوا الشيخ أن يظلّوا صامدين ولو بلغ الأمر بهم ما بلغ .

مهما يكن من أمر ، اتفق من معه أن يسلّموا مقاليد الأمور إليه ويبايعوه على السمع والطاعة . وقَبِلَ الشيخ ذلك ، فبايعوه على الكتاب والسنّة أميراً للمؤمنين . وكان أوّل من بايعه أخوه عبدالله ، ثم ابن الشيخ ، محمّد بلّو ، ثم غيرهما من جماعته. فلمّا أصبحوا عقدوا الرّايات شعاراً للجهاد وشرعوا في حفر خندق حول القرية وهم ينشدون :

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدّقنا ولا صلّينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبّت الأقدام إن لاقينا
إن الاولى لقد بغوا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا

---

(٢٧) محمد بلّو ، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، ص١٩٤ .

(٢٨) علي أبو بكر ، الثقافة العربية في نيجريا ، ص٧٦ و٧٧ .

إلى ما جرى من أحداث ووقائع انتهت بدورها بانتصار المجاهدين وتعبّد الطريق لتأسيس دولة إسلامية كبرى لأوّل مرّة تقوم على قواعد الشريعة الإسلامية في مملكة واسعة تدعى اليوم شمال نيجيريا (تشاد) .

بداية الكفاح المسلّح

ممّا تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ الشيخ عثمان بن فودي وجماعته قد انتهجوا في بداية النهضة منهجاً سلمياً بعيداً عن كلّ مظاهر العنف والاصطدام ، وعملوا على أساس تحاشي السلطات السياسية وعدم الاصطدام بها لكي لا تفرض هيمنتها وسطوتها السياسية ومنهجها الذي يخالف الشريعة الإسلامية . ويكمن من وراء هذه السياسة التي انتهجوها هدف آخر غير الخوض في صراع مع السلطة السياسية في بلاد الهوسا في تلك المراحل الحرجة والابتدائية من تاريخ الدعوة .

كان من الطبيعي أن تحول الظروف الصعبة والعراقيل الكبيرة التي واجهت الشيخ، دون الخطاب السياسي المعلن . فالتركيبة المعقّدة للمجتمع وبالذات في الساحات الفكرية والقبلية والسياسية وإلى جانب ذلك كلّه مستوى التفكير والوعي الاجتماعي والديني الضحل والممزوج بالتقاليد الوثنية والخرافية ساهم في عرقلة الطريق أمام الشيخ وأتباعه للإصلاح الواسع والمُعلن .

كان من الواضح أن الخوض في أي معركة خاسرة مع دولة غُوبر القوية وغيرها من ولايات البلاد الهوساوية لم يكن يسفر عن نتيجة غير انتحار حركة الشيخ عثمان بن فودي قبل نضوج ونموّ البذرة وإخفاقها في تحقيق الأهداف السياسية التي رسمتها من قبل .

من الطبيعي أن يكره ملك غوبر وأمثاله من ملوك ولايات الهوسا هذه الحركة والنهضة الإصلاحية التي كان الشيخ يدعو إليها حين ذاك ، لأنّها دعوة لإقامة العدل الذي لا يروق لهم . كما كانوا يحقدون على الشيخ لما كان يحظى به من احترام وإجلال كبير من قبل جماعته . ثم اتّضح للملوك وأمراء الهوسا أن الجماعة الملتفّة حوله قد اتّخذوه إماماً وقائداً لهم تجب طاعته وأن عددهم يزداد بمرور الأيام .

وبكثرة جماعة الشيخ كثرت مكائد ومكامن المعارضين والأعداء أيضاً . وكادت تضيق عليهم الأرض بما رحبت لكثرة مالاقوه من الأذى ولما توعدهم به الأعداء من

غزو وقتل[٢٩] فعندئذٍ بدأ الشيخ يشجّع ويحضّ جماعته على التسلّح دفاعاً عن أنفسهم لئلّا يغشاهم العدوّ على غرّة[٣٠] . وأخيراً اضطرّ الشيخ وجماعته للهجرة ، فخرجوا من قريتهم طِغِل ، وهاجروا إلى مكان قريب من حدود ولاية غُوبر يُدعى غُدُ وكان ذلك يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة عام ١٢١٨هـ[٣١] الموافق للحادي والعشرين من فبراير (شباط) سنة ١٨٠٤م .

فلما أضحت هذه الجماعة منعزلة عن غيرها رأت أن لا حيلة لها إلّا التأهّب والتجهّز للدّفاع عن نفسها بمواجهة أعدائها ، ورأت أن لابدّ من اتّخاذ إجراءات لازمة لتنظيم نفسها. فاجتمع كبار الجماعة وبعد تشاور دار فيما بينهم ، اتّفقوا أوّلاً أن يختاروا رئيساً لهم ، فوقع الاختيار على الشيخ عثمان فبايعوه قائداً وإماماً لهم على الكتاب والسنّة وأوّل من بايعه هو أخوه عبدالله بن فودي ثمّ ابنه محمّد بلّو ثمّ غيرهما من الاتباع والجماعة[٣٢] .

هذا الحادث يمثّل فصلاً جديداً ونقطة تحوّل حديثة في تاريخ نيجريا . فهي نقطة البداية للحوادث التي هدّمت ولايات الهوسا وأرسيت دعائم حكومة مملكة سُكُتُو على أساس كان قوامه الدين والشريعة الإسلامية[٣٣] .

استمرّت التدهورات والأزمات حتى أدّت بالأوضاع إلى اندلاع قتال بين جماعة الشيخ عثمان وأمير غُوبر وأتباعه ، فتتابعت الغارات والهجمات التي تمخّضت عن واقعة كُتُو Koto ، تلك الواقعة التي وصفها محمّد بلّو بأنّها أعظم حادث بينهم وبين أعدائهم وأسماها « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان »[٣٤] .

وكان أمير غُوبِر « يُنفا » قد أعدَّ وجهّز جيشاً قاده هو بنفسه ونهض به صوب أعدائه[٣٥] ، فلما التقى الجيشان وتخالط الصفّان تقاتل الفريقان قتالاً عنيفاً ، انهزم أمير غوبر وجماعته فولّوا هاربين . وهكذا انتصر جيش الشيخ على أعدائه وفاز بكثير من

---

(٢٩) ضبط الملتقطات ، ص٢٢ وما بعدها .

(٣٠) عبدالله بن فودي ، تزيين الورقات ، ص٥١ .

(٣١) ضبط الملتقطات ، ص٢٦ إلى ٢٧ .

(٣٢) إنفاق الميسور ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٣٣) شيخو أحمد سعيد غلادنثي ، حركة اللغة العربية ، ص٥٣ .

(٣٤) إنفاق الميسور ، ص٧٣ .

(٣٥) حول هذا الحادث راجع كتاب « نجم الإخوان » من **مؤلّفات الشيخ عثمان نفسه** ، الفصل الثامن ، ص١٠٤ .

الغنائم التي تركها الأعداء وراء ظهورهم ، ولا يخفى أهميّة هذا النصر لأصحاب الحركة لما كان فيه من زيادة على قوّة الجيش الإسلامي وتشجيعهم وترغيبهم وإعطائهم ثقة كبيرة بالنفس .

ولم يزل الشيخ وجماعته يقاتلون ملوك الهوسا حتى انتصروا عليهم كلّهم وسقطت الولايات واحدة تلو الأخرى ودخلت بعد ذلك كلّها تحت دولة جديدة موحّدة وصار الشيخ عثمان إماماً لهذه المملكة الواسعة ، فوضع لها نظاماً إدارياً دقيقاً خاضعاً للنظم الإسلامية السليمة وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية للدولة.

من الضروري هنا أن نذكر بأن الشيخ قبل الخوض في الجهاد المباشر ضدّ الولايات ويعد الانتصار الأعظم كتب إلى كلّ ملوك الهوسا يبيّن لهم موقفه ويوضّح لهم ما يريده ليكونوا على علم وتتمّ الحجّة عليهم .

ذكر لهم أنّه عازم على إحياء السنّة المحمّدية وإخماد البدعة الشيطانية وأمرهم أن يخلصوا لله دينه وأن يتبرّأوا من كلّ ما يخالف الشريعة . فوقعت رسائله هذه في آذان صمّاء ولم تلقَ قبولاً حسناً منهم . فمن الأعداء من مزّق الكتاب ومنهم من توعّد الكاتب وهدّده[٣٦] . من هنا بدأت الحروب وخرج الشيخ وجماعته منتصرين بنصرة الله العزيز القدير .

إنّ من يعتقد بأنّ الشيخ خاض في قتال وجهاد لم يكن يتوقّعه[٣٧] على خطأ كبير ؛ لأنّ حركة إصلاحية واسعة على مستوى مساحة كبيرة من القارة الإفريقية لا يمكن أن تحدث إلا بعد تخطيط وتدبير وحنكة سبقتها بأعوام كثيرة . غير أن الشيخ عثمان دان فودي لم يكن يطلب البدء في القتال ، وإنّما كانت حوافزه الرئيسية تتركّز على الحكم الإسلامي ، ولو تحقق لما خاض قتالاً عنيفاً يترك الآلاف من القتلى . فلا ننسى أنّه توقّع الرفض من قبل أولئك الملوك والأمراء ، فنظّم وبرمج وخطّط للأحداث التي كان من الأرجح وقوعها . فلم تكن ثورته الكبرى وليدة الاعتباطية والعفوية ، كما أنّها لم تكن جهاداً دفاعياً بل كانت حركة منظّمة تنظيماً دقيقاً تطوّر بها الشيخ عبر ثلاث مراحل رئيسيّة[٣٨] :

---

(٣٦) ضبط الملتقطات ، ص٣٦.

(٣٧) مروين هيسكت ، گسترش اسلام در غرب آفريقا ، ص ٢٣١.

(٣٨) أحمد محمد كاني ، حركة الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، ص٢٨ و٢٩ (ضمن كتاب نشرته الجامعة

١ ـ المرحلة التكوينية أي مرحلة الدعوة .
٢ ـ المرحلة الجهادية .
٣ ـ مرحلة توطيد وتمتين دعائم الدولة الإسلامية .

دراسة مقارنة حول الحركات الجهادية والإصلاحية

زخرت صفحات التاريخ الإسلامي وغيره بالنصوص التي تناولت الحركات الإصلاحية والنهضات الجهادية من محاولات ناجحة أو فاشلة ساهمت في عملية التغيير الإيجابي نحو الصلاح والسداد في كافّة المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية وما إلى ذلك .

إلا أن الذي يرفع الحركة الجهادية للشيخ عثمان إلى درجة عالية من السموّ والقيمة انطواؤها على صفات رمزيا قلّما تجتمع في نهضة غيرها ، فهي :

١ ـ تتّسم القيادة في هذه الحركة بشيء كبير من أصالة وعمق وسعة في الوعي الديني والفقه الإسلامي ، الأمر الذي قلّما نجده وبهذا المستوى العالي في الحركات الإسلامية وبالذات الجهادية منها في غربي إفريقيا .

هذا الأمر يتّضح أكثر فأكثر حينما نلحظ وبدقّة علمية حجم التراث الإسلامي المدوَّن الذي تركه الشيخ وقواعد حركته . فمع أنّ حصّة كبيرة من حياة القائد الفقيه انقضت في التحضير لتطبيق الحكم الإسلامي بما فيها من اندلاع الحروب وصعوبات الهجرة ، نجد بين أيدينا أكثر من مئة وخمسين مؤلّفاً في كافّة المجالات الثقافية والفقهية والإصلاحية والسياسية وغيرها من موضوعات الساعة .

هذه الثروة العظيمة والتي تحظى الأغلبية منها باستدلالات ومباحث معقّدة فقهية يتناول المؤلّف الفقيه فيها الأبحاث بشكل اجتهادي تعبّر وبشكل واضح أن مصدر هذه الحركة الكبرى هو فقيه فذّ وعالم فريد وعارف ربّاني لا ينشد إلّا هداية المجتمع إلى شاطئ الأمان .

انطلاقاً من هذا لم تكن الحركة تنبع من عصبية قومية ـ وإن ساعدت في إنجاح النهضة ـ أو مشاعر حماسية وأحاسيس باطنية ، كما لم تكن إفرازاً من خارج الساحة

الإفريقية العالمية في السودان حول الشيخ عثمان) .

القيادية أو إثارة من جهة أجنبيّة .

إن مطالعة كثير من الحركات الإصلاحية تكشف لنا أنّ منها ما ليس على قاعدة مستقلّة ولا تهدف إلى مطالب تأسيسيّة وإنّما هي نتيجة تدخّل جهة خارجة عن القيادة، التي تمثّل أداة لتحقيق رغبات تلك الجهة . ولكن الجهاد العثماني في شمال نيجرية يمثّل حركة إصلاحية دينية تربوية على المسار النبوي الصحيح ، وتنطلق من عالم وفقيه يستخدم جميع الوسائل المتاحة بما فيها الكفاح المسلّح لتحقيق الهدف الأسمى والغاية القصوى ألا وهي الانطلاق والارتفاع بالإنسان نحو الله وبالمجتمع الإنساني الغارق في ظلمات الجهالة والخرافة والبدعة إلى ذروة السعادة والسموّ . وطبيعي أن لا تجد النزعات المادية والرغبات السلطوية حيّزاً يذكر في مثل هذه الحركات المباركة الطيّبة .

سنتعرّض بعد قليل إلى الثروة العلمية التي تركتها قيادة الحركة والآثار التي تمثّل الحوافز والدوافع لاندلاع مثل هذه النهضة .

٢ ـ احتلّت الأسس التربوية والدعوة الإسلامية بالأساليب التعليمية ـ والتي عمّت أكثر من شريحة أو طبقة اجتماعية ـ مكانة كبيرة في الحركة الاصلاحية للشيخ عثمان دان فودي ؛ ولهذا لا نعتبر الحركة المسلّحة والمواجهة السافرة من حوافز ودوافع نهضة كهذه .

« بدأ الشيخ عثمان جهاده داعياً وناصحاً ومبلّغاً لدين الله القيوم ، وقد أعدّ نفسه لهذه الرّسالة من قبل بالدراسة والإطلاّع الواسع والنهل من كتاب الله الكريم بعد حفظه . ثمّ انفتح على الناس معلّماً ومرشداً وواعظاً بلسانه وقلمه ثمّ اضطرّ إلى إعمال واستخدام السيف حين ما دفع إليه دفعاً . فلم يكن الشيخ رجل حرب أو قتال ولم ينح هذا النحو وإنّما اضطرّ اضطراراً للجهاد دفاعاً عن الدين والنفس »[٣٩] .

إذن كان الشاغل الأوّل والهمّ الأكبر لدى الشيخ ومساعديه هو جعل التعليم والتربية ـ وبالذات التزكية ـ وسيلة للدعوة . وممّا لاشك فيه أنّ الشيخ نفسه كان على قمّة التقوى والخشية من الله والتواضع بين الناس وخُلق كريم وأسلوب حميد في دعوته ، الأمر الذي سبّب نفوذ دعوته في أعماق قلوب المخاطبين الذين وجدوه أهلاً

---

(٣٩) بابكر حسن قدماري ، المنهج التربوي في الدعوة للشيخ عثمان دان فودي ، ص١٢٢ ، وكذلك محمد بلّو ، إنفاق الميسور في تأريخ بلاد التكرور ، ص٢٠٥ و ٢٠٦ .

وعاملاً ومجسِّداً لما يدعوهم إليه .

إنّ الوعظ والكتب والنصيحة والرسائل الأخلاقية والحلقات الدراسية والمدارس الدينية كلّ هذه كانت تتحقّق وتنتشر وبشكل واسع في أنحاء المنطقة . وسوف نتعرّض لها كمحاور وركائز في دعوة الشيخ يتمّ التركيز عليها وفق الظروف والملابسات .

والذي نريد التركيز عليه هو أنّ السلاح والتدريب العسكري وتجهيز وتحضير الجيش وما إلى ذلك ممّا لابدّ منه في حركة تدعو إلى الحكم الإسلامي لا تمثِّل الجزء الأكبر من نشاطات الشيخ الذي اهتمّ إلى جانب ذلك ، بالشؤون التربوية والتزكوية والتعليمية .

ومع كلّ ذلك و إلى جانب القيادة العظمى في نهضته ، كان الشيخ المحور الأكبر في الحركة العلمية والتربوية أيضاً ؛ بل كان الشيخ فقيهاً بارزاً وشخصيّة علمية مرموقة يحكم في الناس بكتاب الله وسنّة الرسول عليه الصلاة والسلام ـ على ما جاء في توجّهاته العقيدية والفقهية ـ فلم يكن الشيخ سلطاناً وحاكماً سياسياً بقدر ما كان وليّاً فقيهاً يتولّى كافّة شؤون المجتمع الإسلامي أو كان بصدد ذلك كلّه .

هذا الجانب الديني والطابع الإسلامي لا يخفيه حتى الذين درسوا القضية من خارج الديانة ولكن بإنصاف وحياد . فهذا مايلين روبنسون يرى أنّ حركة الشيخ عثمان دان فودي هي في المقام الأوّل حركة تصحيح دينيّة ، أي أنّها حركة انبعاثية للنهوض بالدين وتطهير الإسلام ممّا علق به من ممارسات وثنيّة بالرجوع إلى الكتاب والسنّة وما كان عليه السلف الصالح(٤٠) .

كذلك يعزّز هذا الموقف أنّ حركة الشيخ الإصلاحية لم يفرزها الاستعمار الأوربي وإنّما الظروف الغاصّة بالجهالة والخرافات والبدع هي التي دفعت الشيخ ليفجِّر تلك النهضة .

هذا وإنّ أغلب الحركات الإصلاحية الإفريقية مثل جهاد السيّد محمد عبدالله حسن في الصومال عام (١٨٨٤م) ، وجهاد عمر بن سعيد فوتي (١٨٥٩م) ، وحركة حاج محمد أمين (١٨٨٦م) وغيرها من الحركات التي حدثت في إفريقيا الغربية ، وأيضاً الثورة المهدية في السودان ، جاءت رداً على الاستعمار ، بينما جهاد الشيخ عثمان جاء

---

(٤٠) الشيخ عثمان بن فودي لجامعة إفريقيا العالمية والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ص١٥٥ .

لينازل الجهل الشامل والبدع السائدة .

إن ثورة الشيخ عثمان تختلف جوهرياً عن غيرها بما تحظى من رغبة ـ على مستوى القيادة والقاعدة ـ في الإصلاح الشامل والتغيير الجذري في أركان الحياة الدينية والاجتماعية في المجتمع الإ فريقي الغربي . ولذا لا يصحّ أن تحسب في عداد الحركات التحررية الطارئة التي أكثر ما كانت تهدف إليه هو التحرّر من الاستعمار الأجنبي. إننا لا نجد إلا القليل من الحركات والنهضات التي قامت وانطلقت على هذا الأساس القويم .

من الصعب جداً على الباحث الخبير بهذه النهضة الواسعة أن يقيس بها غيرها من الحركات الإصلاحية التي تفتقد الكثير من المزايا التي حظيت بها حركة الشيخ عثمان دان فودي ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار نجاحها دون غيرها في تأسيس دولة إسلامية كبرى في منطقة مترامية تكتظّ بالملايين من المسلمين، والتي استمرّت قائمة غربيّ القارة الإفريقية وبشكل خاصّ بلاد الهوسا لمدة مئة عام.

٣ ـ المائز الكبير الآخر بينها وبين غيرها من الحركات الإصلاحية هو تحوّل وتطوّر الثورة إلى الدولة. فالخلافة الإسلامية والتي يعبِّر عنها بعض بالدولة السكوتية أو الإمبراطورية السكوتية المنسوبة إلى ولاية «سوكوتو» عاصمة حركة الشيخ عثمان،تمثّل ثمرة مباركة عمّت فائدتها كافّة المجالات الاجتماعية والسياسية، وأبدلت التقاليد والسنن الخرافية المرتكزة على الأهواء والبدع إلى آداب وأنظمة دينية مرتكزة على إرادة الله تبارك وتعالى المتمثّلة في الوحي الإلهي والسنة النبوية. فأخذت الحياة البشرية وخاصة على الصعد الاجتماعية طابعاً دينياً وإسلامياً.

هذا في حين لم تتخطّ النهضات والحركات الجهادية الأخرى في أكثر أنحاء العالم مرحلة الثورة. أما الثورة العثمانية فلحقتها دولة وحكومة إسلامية سادت كافّة أنحاء البلد، كما تكوّنت إثرها دوائر تعليمية وتربوية إسلامية ونُظمت دساتير وقوانين ملتزمة دينياً تحافظ على القيم الروحية والعدالة الاجتماعية ، وتعيد إلى الأذهان حكومات الصدر الأول من الإسلام.

وفي الحقيقة يجد الباحث المنصف في دراسته وبحثه لهذه النهضة أكثر من نقطة التقاء بينها وبين الدعوة والدولة الإسلامية الأولى في المدينة؛ هذا لأنّ نواة حركة الشيخ عثمان وبذرة الدولة العثمانية غُرست ونضجت في المهجر. فإنّ الشيخ وجماعته

المؤمنة وتحت وطأة الظلم الذي تعرّضوا له من قِبل الجائرين ضاقت عليهم الأرض وصاورا بين المهادنة والاستسلام أو خيار الهجرة والصّمود، فاختاروا الثاني، فهاجروا. ولم يعدلوا عن قرارهم حينما عدل السلطان الجائر عن حكمه بعدما شعر بالخطر الذي يهدِّد كيانه الظالم من قِبل المهاجرين الذين كان عددهم يزداد يوماً بعد يومٍ. وتعزّزت قاعدة الشيخ عثمان في المهجر ثم اندلعت الحروب والاشتباكات الدامية بينها وبين الجبهة المعارضة للإسلام.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنّ الشيخ عثمان وأخاه الكبير العلامة والمفسّر العظيم، وابن العالم المؤرّخ وغيرهم من جماعته يذكرون هذه المعارك في كتبهم باسم الغزوات، فيقولون على سبيل المثال: غزوة كانو، وغزوة كشينا وما إلى ذلك من عشرات الغزوات التي خرج الشيخ منهامنتصراً، كما كان الشيخ يُدعى أميرَ المؤمنين وخليفةَ المسلمين، يُطاع كما يُطاع الرسول وخليفته.

هذا ولا أعتقد أن الباحث يجد مجالاً خالياً من معلَم إسلامي يُذكِّرنابالصدر الأول من الإسلام.

مهما يكن من أمر؛ حينما صارت قاعدة الشيخ معزّزة وقوية في المهجر، رجع هو وجماعته قاصدين العروش الفاسدة ومعتزمين على إزالة الكفر والبدعة وإقامة السنة المحمدية من خلال تطبيق الخطّة التي رسمها هو وجماعته إذا ما امتنعت الحكومات المحلية من قبول دعوتهم الإلهية.

وبلغ الشيخ وجماعته قمّة القدرة والعزّة ـ بالتحديد ـ بعد أربعة عشر عاماً من بداية الدعوة التي انطلقت في الأربعين من عمر الشيخ. وفي نهاية المطاف، توفي الشيخ عن عمر يناهز الثلاثة والستين.

وكان لنقاط الالتقاء هذه بين حياة الشيخ وحياة الرسول الأعظم ﷺ أثر إيجابي في نفوس أتباع الشيخ، وعززت من إيمانهم بالشيخ عثمان بن فودي .

٤ ـ وممّا يميّز الحركة الإصلاحية العثمانية عن غيرها من الحركات الإصلاحية والجهادية هو أن حركة الشيخ عثمان كان يديرها منذ الانطلاق مجموعة كبيرة من كبار العلماء والفقهاء وعلى رأسهم الشيخ عثمان نفسه. فيمكن القول أن ثورة الشيخ عثمان والدولة الإسلامية التي أقامها ، كانت حركة علمية وعلمائية قامت على أساس من العلم

الواعي الصحيح ، وكما يذكر لنا الأستاذ الكبير السيد إبراهيم الحسيني كبير العلماء حالياً بشمال نيجريا : «قادها أئمّة علماء مخلصون أمثال الشيخ عثمان دان فودي ووزيره ابنه محمد بلّو، وأخيه الشيخ عبد الله بن فودي الشهير بنادرة الزمان. ولقد خلّف الأخير ثروة علمية لا تتمثّل قيمتها في كثرتها فحسب وإنمّا أصالتها ودقتها وعمقها وغنائها في كلّ موضوع طرقه مؤلفها أو تناوله بالبحث والتحقيق فرحم الله الجميع»(٤١).

ومن ملاحظة تأريخ الحركات الثورية والجهادية الأخرى، والتي لم تنته أي منها إلى دولة إسلامية بل بقيت في مرحلة الثورة (على أقلّ تقدير في السودان الغربية وغرب إفريقيا) يتّضح لنا أن سرّ النجاح في حركة الشيخ يكمن أوّلاً وآخراً في كون قيادتها مجموعة من أبرز الفقهاء والحكماء الذين احتلّوا حيّزاً واسعاً في أعماق قلوب المسلمين.

المهدية في النهضة الإصلاحية العثمانية

إنّ الشعوب الإفريقية المضطهدة كانت وعلى مرّ القرون تحت وطأة التعذيب وممارسة أبشع الأعمال وأشدّ الضغوط في حقّهم من قِبل الطبقات الحاكمة والسلاطين الجائرة. فيكون من الطبيعي أن تعي هذه الشرائح والمجتمعات المضطهدة والمظلومة معنى الانتظار. لاسيّما إذا ما وجدوا في نصوصهم الدينية ما يدلّ ـ وبدون أدنى شكّ ـ على حتمية وقوع حادث عظيم وحكم إسلامي عالمي يقوده إمام معصوم وابن للنّبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

إنّ الظلم الذي تعرّضت له الشعوب الإفريقية من قبل الجائرين المحليين الذين احتلّوا مراكز القوة في هذه المجتمعات ومارسوا أبشع صور الظلم والتعذيب والنهب في حقّ الشعّوب قلّما نجد له مثيلاً في غيرها من القارّات والمجتمعات.

وفضلاً عن السلاطين المحليين ، فإن الاستعمار الأجنبي الذي تكالب على هذه المنطقة الخصبة والزّاخرة بالثروات والخيرات، وبالطّاقة البشرية الرخيصة لاستخدامها في الدّول المستعمرة؛ نهب كلّ ما استطاع من ممتلكات هذه الشعوب. كما ضاق المسلمون ذرعاً من التصرّفات والممارسات الظالمة التي مارسها كثير من

---

(٤١) إبراهيم صالح الحسيني، الأبعاد التأريخية للإسلام في إفريقية والدعوة الإسلامية، ص ٣ ـ ٤.

المسيحيين ضدّهم.

من هنا عندما لم يجد المسلم المضطهد سبيلاً إلى الدفاع عن نفسه ومواجهة هذا الظلم الذي اتّسع وعمّ كل حياته، توجّه نحو القدرة الإلهية وتطلّع إلى من يمتلك قدرة تفوق القدرات الطبيعية لينقذهم مما هم عليه من حياة غاصّة بالفساد.

ومهما يكن من أمر، فإنّ فكرة المهدي ـ عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ ليست فكرة يتمكن الإنسان أن يطعن في شيء منها شيعة وسنّة(٤٢)

بل إن فكرة ظهور شخصيّة سماوية مرموقة تفوق جميع القدرات البشرية وتملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً نجدها في أكثر من ديانة وفكرة ومدرسة عقائدية(٤٣). بيد أنّ الرّسول الأكرم ﷺ وخلفاءه وأوصياءه عليهم السلام رسموا وبكلّ وضوح معالم هذه الفكرة ومجسّدها. فبقطع النظر عن تحديد زمن خاصّ للظهور ـ أو على تعبير الرّوايات التوقيت له ـ اتّضح الأمر بكلّ حذافيره وأبعاده. فقد قام النبي ﷺ وفي أكثر من وقت وموطن بتعريف شخصية المهدي وخطّه والأمر الذي يقوم به في آخر الزمن، وتحديداً : حينما تمتلئ الأرض من الظلم والجور. فزخرت مصادر الشيعة والسنّة من الرّوايات الصحيحة الناصّة على معالم فكرية ونسبية وحتى مواصفات شخصية وشمائل الامام المهدي وقسماته. وربّما ذُكرت هذه التحديدات كلّها لئلاّ يزعم زاعم أنّ المهدي ليس إنساناً محدداً وإنّما شخصية خيالية أو رجل لم يخلق بعد .

لا يسعنا في هذا المجال أن نتطرق لموضوع واسع كهذه القضية التأريخية إلا على نحو المرور العابر . كذلك لا نتناول البحث إلاّ فيما يتعلّق بدور المهدية في بعض من الحركات الإصلاحية في إفريقيا.

وعلى أيّ حال، يمكن القول أن النهضات التي تنتمي إلى الفكرة المهدية تنشطر إلى شطرين، فعدد من القائمين بهذه الحركات انطلق على أساس أن كلاً منهم هو المهديّ بعينه فدعا الناس إلى نفسه باعتبار أنه هو الإمام المهدي الذي طالما انتظرته الأمة

---

(٤٢) راجع : عقيدة أهل السنّة والأثر في المهدي المنتظر ، الشيخ عبد الحسين العبّاد، مجلة الجامعة الإسلامية ، العدد الثالث ، السنة الأولى ١٩٦٩، وراجع منتخب الأثر للعلّامة الشيخ الصّافي الگلبايگاني، وراجع : ينابيع المودة، ٤٤٥، و ٤٨٦، و ٤٩٢، و ٤٩٣. وراجع : مقتل الحسين للخوارزمي، ج ١، ص ١٤٦. والمستدرك على الصحيحين، ج ٤، ص ٤٦٥.

(٤٣) هاشم معروف الحسني، سيرة الائمة الاثني عشر، حياة الامام المهدي ـ عجل الله فرجه الشريف ـ ج ٢، ص ٥١٦.

واستنصرته . وبما أنّ الشعوب الإفريقية لم تكن تمتلك شيئاً كبيراً من الوعي الإسلامي وكان الجهل يسُود القسمَ الأكبر من المجتمع، فقد استطاع الأدعياء استغلال هذه الفرصة لادعاء المهدية ، ساعدهم على ذلك تهيؤ وتأهبّ المجتمع الإفريقي المضطهَد لقبول فكرة الإمام المهدي المنقذ وظهوره.

فيما يلي نص من عشرات النصّوص والأشعار التي تتناقلها أفواه الناس ـ ولاسيّما الشطر الغربي من إفريقيا ـ نقلناه إلى العربية ليكون دليلاً على وجود فكرة الانتظار لظهور منقذ ينقذهم ؛ الأمر الذي صار أداة ليستغلّه الأدعياء. فإليكم أبيات منقولة إلى العربية:

كونوا على حذر فإنّ المهدي سيظهر،
اعلموا أنّه قد بدأت تتحقق علائم ظهوره،
منها أن يعمّ الحرص فيما بين العلماء،
ويتلهفوا للدنيا، ألا إنهم لا يتجهون نحو الله،
ومنها أن الفتاوى الشرعية لا تنبع من كتاب الله،
أعلموا أنه سوف لا يُتّبع الدين الإسلامي،
ومنها أن الحكم يمتلكه الشباب،
ومنها أنّ كثيراً من الناس يتسوّلون وهم أغنياء،
ومنها أن محبّي الشهرة والطالبين للصّيت والجاه يكثرون،
ومنها أنّ الناس لا يصبرون على الفقر،
ومنها أنّ الجار لا تراعى حقوقه،
ومنها أن الرّحم تقطع صلته،
ومنها أنّ النساء يودّعن العفّة والطهارة،
ولا يستحي الرجل ولا المرأة،
حينئذٍ يُفتح طريق المهدي،
... ويظهر، ويتابعه الناس(٤٤)

إنّ الباحث عن هذه القضايا والواعي لعلائم الظهور، والتي جاءت في المصادر الشيعية والسنية ، يجد وبيسر كلّ ماجاء باعتبار العلائم والملاحم والفتن في آخر

---

(٤٤) hausa manuscript, A B M .

الزّمان، يجدها ما بين طيّات هذه الأشعار . وهكذا تطبعت الشعوب الإفريقية ولاسيّما الشمال والغرب منها على المهدية. ومن الطبيعي أن يكون للتصوف بما فيه من الطرائق المتعددة دوره الهامّ في الاعتقاد بقضية الإمام المهديّ.

كلّ هذا الاعتقاد القويّ بظهور المهدي (عجلّ الله تعالى فرجه الشريف) أسفر عن ظهور عشرات الأدعياء الذين قد تختلف الدوافع والبواعث عند واحد منهم عن الآخر.

إنّ دراسة شاملة للذين ادّعوا المهدية والحركات التي قاموا بها في هذه المناطق ولاسيّما في السودان والدول المجاورة الشمالية والغربية منها ، تكشف لنا كثيراً من هذه الإشكاليات وتجيب عن الكثير من الاستفهامات التي تطرح حول الدوافع والبواعث في هذه النهضات.

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ القادة الكبار ولاسيّما العلماء والفقهاء من قيادات الحركات الإصلاحية والإنقاذية في إفريقيا ـ بقطع النظر عن ميولهم الشخصية وادعاءاتهم المعلنة ـ واجهوا اعتقاد الناس فيهم بالمهدية. ففي أكثر من حين يضطرّ العالم المجاهد الشيخ عثمان دان فويو ليصرّح بأنّه ليس بالامام المهدي، حتى أنه عمد إلى تأليف أكثر من كتاب رفضاً لما اعتقد الناس فيه، ولكنّ كثيرين لم يقتنعوا باعتباره مجدّداً، وهو الأمر الذي تبنّاه الشيخ ورضي به وبأن يكون ممهّداً للإمام المهدي فقط بينما هم ألحّوا على أنّه هو المهدي.

بعد البحث والتنقيب الشديد في الآثار المطبوعة والمخطوطة للشيخ عثمان بن فودي بغية العثور على الكتب التي تتطرق لقضيّة المهدي ورفض الشيخ الشّديد بأن يُعتبر هو الإمام المهدي، اطّلعنا على مؤلفاته التالية ذات الصلة بالموضوع :

١ ـ تحذير الإخوان من المهدية الموعودة آخر الزمان.
٢ ـ الخبر الهادي إلى أمر الإمام المهدي.
٣ ـ نصيحة أهل الزّمان.
٤ ـ إرشاد الأمّة إلى تيسير الملّة.
٥ ـ تنبيه الأمّة على قرب هجوم أشراط السّاعة.
٦ ـ تنبيه الفاهم .

إضافة إلى هذه الكتب التي تتناول المسألة في إطارها الواسع، لا يخلو كثير من مؤلفاته من إشارات أو إيضاحات فيما يتّصل بالمهدية.

كما مرّ آنفاً فإنّ حالة الانتظار والترقّب الشديد ـ والمتفشّي في المنطقة ـ لظهور الإمام الحجّة ـ عجل الله فرجه ـ من جانب والكفاءات والمؤهلات العلمية والروحية عند الشيخ عثمان من جانب آخر ، أدّت إلى خصوبة الظروف والأوضاع الاجتماعية ولا سيّما بين الشّرائح العامّة والرّأي العام رغم إنكاره الزعم بأنه هو الإمام المهدي.

كانت الأوضاع في حياة الشيخ في غاية الخصوبة والمناسبة لإطلاق الادعاءات المهدية، إلى درجة استطاع محمد أحمد المهدي في سودان وادي النيل ، وبعد أكثر من نصف قرن مضى على جهاد الشيخ ، أن يعتبر حركة الشيخ عثمان دليلاً واضحاً على قرب الظهور ومن ثمّ ادّعائه المهدية[٤٥]. كما أعلن حياتو بن سعيد[٤٦] حفيد الشيخ عثمان بن فودي تأييده لحركة المهدي السّوداني عندما خاطبه معلناً نصرته عام ١٨٨٣م :

«قد بايعتك أنا وولدي وجميع ما تعلّق بي قبل ظهورك الحسّي وشأننا مع شأنك معلوم عندنا، سيّما وقد أوصانا الشيخ عثمان بن فودي ... بالهجرة إليك ونصرك ومعيّتك إذا ظهرت ونحن معك قلباً وقالباً في نصر دين الله وسنّة رسوله»[٤٧].

وأمّا بالنسبة إلى الشيخ عثمان فإنّه في بداية الأمر اعتمد على نبوءة الإمام جلال الدين السيوطي التي تقول بإنّ المهدي المنتظر سيظهر في عام ١٢٠٠ هـ الموافق ٦ / ٥ / ١٧٨٥ م أو عام ١٢٠٤ هـ الموافق ٩ / ١٧٨٩ م واعتقد كثير من الناس أنّ الشيخ عثمان نفسه هو المهدي المنتظر ، ولكنّه بتواضعه الجمّ رفض هذا الادّعاء رفضاً باتاً ، وقد كتب كتباً لإقناع الناس بذلك كما ذكرنا قبل قليل. ومع أنّه رفض ادعاء المهدية فقد قال : «إن الله قد منّ عليه بموافقة أحواله» مستدلاً بأوصاف السيوطي في كتابه «العرق الوردي في أخبار الإمام المهديّ»[٤٨].

وقد رفض الشيخ عثمان أن يكون هو المهدي المنتظر على الرغم من استعداد الناس لتتبنّى ذلك منه لو ادعاه؛ لأنه كما يقول :

---

(٤٥) محمد سعيد القدال، الإمام المهدي (محمد أحمد بن عبد الله) ، ص ٢٧ فما بعدها.

(٤٦) ابن محمد بلّو بن عثمان بن فودي والذي نصّبه المهدي السوداني عاملاً له على السودان الأوسط ولكن حكام سوكوتو لم يعترفوا به عاملاً ولم يعترفوا بالمهدي إذ قالوا إنّ أوان المهدي لم يحن بعد.

(٤٧) دفتر النجومي، دار الوثائق القومية، ص الخرطوم، ٥٨ ـ ٥٩ (نقلاً عن مقال البروفسو يوسف فضل حسن ، المقدّم إلى جامعة إفريقيا العالمية لإحياء ذكرى الشيخ عثمان بن فودي).

(٤٨) جامعة إفريقيا العالمية، الشيخ عثمان دان فودي، ص ٤١.

«وللإمام المهدي رضي الله عنه أوصاف وأسرار لا يتّصف بها مثلي وأين دويّ الزنبور من نغمة الزبور»(٤٩).

ويقول في كتابه المسمّى بـ «تحذير الإخوان من ادّعاء المهدية الموعودة آخر الزمان» والذي كتبه مبدئياً رفْضاً لما كان الناس يزعمون فيه :

«اعلموا يا إخواني أن ظهور المهدي أمر مقطوع به وأن كونه شريفاً أمر مقطوع به وأنه من ذرية فاطمة بنت النبّي صلى الله عليه [وآله] وسلم هو الصحيح الذي عليه الجمهور»(٥٠).

وفي فصل آخر :

«واعلموا يا إخواني أني لست بالامام المهدي ولا ادعيت المهدية قط وإنمّا يُسمَع ذلك من أفواه الناس وقد بالغت في تحذيرهم من ذلك وقد صرّحت بردّ ذلك في تواليفي العربية والعجميّة»(٥١).

ثم يقول :

«كيف أدّعي المهدية وقد وُلدت في بلاد السودان في مكان يسمّى «مرد» (أو مرت) وقد عرف في الأحاديث النبوية أن المهدي سيولد بالمدينة؟ وكيف أدّعي المهدية ولم يواطئ اسمي اسم النبي صلى الله عليه [وآله] وسلم ، إذ اسمي عثمان ولم يواطئ اسم أبي اسم أبيه ، إذ اسم أبي محمد ، وقد عُرف في الأحاديث النبوية أن المهدي يواطئ اسمه اسم النبي ويواطئ اسم أبيه اسم أبيه»(٥٢).

بل كان يرفض أيضاً عن نفسه صفة الاجتهاد التي يتصف بها الإمام المهدي المنتظر لأن المهدي من مجتهدي التأصيل الذين لا يتقيدون بأيّ من المذاهب(٥٣) .

وهو يشدّد على رفضه البات حينما يقول :

---

(٤٩) المصدر السابق، ص ٤٢.

(٥٠) تحذير الإخوان من ادعاء المهدية الموعودة آخر الزمان، ص ٢ (المخطوطة بجامعة سوكوتو .

(٥١) نفس المصدر، ص ٣، يعنيم بالعجمية هنا الفلانية والهوساوية.

(٥٢) نفس المصدر، ص ٤، ٥.

(٥٣) عبد اللطيف سعيد، سيرة الشيخ عثمان دان فودي، الصفحة العاشرة من المقال (المطبوع ضمن سلسلة مقالات حول حياة الشيخ والتي قدمت للمؤتمر الذي أقيم بهذه المناسبة بجامعة إفريقيا العالمية في السودان، ص ٤٢).

«... وبهذا تعلم أني لست بالإمام المهدي كما يظنّه جهّال أحاديث المصطفى ﷺ ، لأنّ المهدي شريف من أولاد بنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ قطعاً، ولا أعرف ذلك في نفسي»(٥٤).

ورغم نفي ابن فودي الشديد لأتباعه ادّعاءهم له بأنه المهدي المنتظر وأنه غير مؤهّل لتلك الرسالة، فإنه لم يرفض الاعتقاد السائد آنذاك من أن ظهور المهدي وشيك الحدوث . فالشيخ عثمان أكّد ذلك وحثّ الناس على تأييد دعوة المهدي عجل الله فرجه .

وجاء في رسالته للجماعة بالشرق من أهل «زمفر»، و «كتسينا»، و«كانو»، و«دورا». أن يردوا عليه فيلقاهم. فلما حان وقت الخريف وأقبلوا أرسل مكانه ابنه محمد بلّو الذي روى :

«وأخبرت الكلّ بأنّ الوالد حيّاهم وأمرهم بالمبايعة على السمع والطاعة واتّباع السنة قولاً وفعلاً ... وأخبرتهم بما بشّرهم به من قرب ظهور المهدي [عليه السلام] وأن جماعة الشيخ طلائعه. ولا ينقض بإذن الله هذا الجهاد حتى يفضي إلى المهدي ، فسمعوا واستبشروا...»(٥٥).

انطلاقاً من هذا سرعان ما انتشرت الدعاوي الكاذبة والباطلة من قبل بعضٍ، مستغلّين هذه التأكيدات على قرب ظهور الإمام عليه السلام لتحقيق رغبات لهم.

هذا التفشّي في الادعاءات الزائفة والتي أدّت إلى خلق الكثير من المشاكل وتضليل الرأي العام من جهة ، وعدم تحقّق تنبّؤ عبد الرحمن السيوطي ـ والذي عليه بدأ الشيخ وفي إطار واسع يؤكدّ اقتراب الظهور ـ من جهة ثانية ، أفضى إلى نوعٍ من التراجع في تطرّق الشيخ بذلك الشكل المثير لقضية ظهور الإمام الحجة عجل الله فرجه الأمر الذي دفع الشيخ عثمان إلى أن يعتبر نفسه مجدّداً وممهّداً لظهور الإمام عجل الله فرجه دون أن يؤكدّ وبشكل حاسم على قرب الظهور. وبما أن فرضيات السيوطي لم تتحقق فقد طرحها الشيخ عثمان جانباً مؤكداً أن الموعد الدقيق لظهور المهدي عجل الله فرجه غير معروف. كما جاء في رسالته «تنبيه الفاهم» أن ما أشار إليه مرّات في حلقات الوعظ في ما يختصّ بقرب ظهور المهدي عجل الله فرجه بني على تفسيره لرأي السيوطي في

---

(٥٤) تحذير الإخوان من ادعاء المهدية الموعودة آخر الزمان، ص ٥.

(٥٥) محمد بلّو بن عثمان، إنفاق الميسور في تأريخ بلاد التكرور، ص ١٠٥ (وفي نسخة نشرتها لجنة بالقاهرة برئاسة علي عبد العظيم، ص ١٣٨).

الأمر ، ولكن بعد التحقيق يعترف الشيخ بأنه لا يعرف الموعد الصحيح على أي درجة من اليقين (٥٦).

وذكر الشيخ في كتابه «تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط الساعة» في حديثه عن خروج الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف بعد عام ١٢٠٤ هـ:

«وأما أنا فقد أدركت ذلك ولم أر المهدي فحكمت ببطلان ذلك. وقد تقدم أن العلماء رضي الله عنهم قالوا، لم يُروَ قطّ حديث عن النبي صلى الله عليه و[آله] وسلم في تعيين وقت وقوع الساعة وفي تعيين أشراطها. فظهر بهذا أن كل ما يروى في التواليف أو سمع عن الأفواه... باطل لا أصل له من الشارع عليه الصلاة والسلام»(٥٧).

هنا وفي نهاية هذا الفصل ، نرى من المناسب أن نتطرق لما يميّز رؤية الشيخ عثمان بن فودي عن كثير من أقرانه وأمثاله من علماء السنة فيما يتصّل بقضية الإمام المهدي ولاسيّما في نسبه عليه السلام . وإذ لا يسعنا أن نعرض شيئاً من عقايد ورؤى الآخرين، نقتصر على نصٍّ صريح يتبّناه الشيخ وينقله في كتاب «نصيحة أهل الزمان»(٥٨).

«واعلموا أنّه لابدّ من خروج المهديّ عجل الله فرجه ولكن لا يخرج حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً فيملأها قسطاً وعدلاً ، ولو لم يكن (أو يبقى) إلاّ يوم واحد لطوّل الله تعالى ذلك اليوم حتى يولّى هذه الخليفة وهو من عترة رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم، من ولد فاطمة رضي الله عنها ووالده الحسن العسكري ابن الإمام عليّ النقي ابن محمد التّقي (بالتّاء) ابن الإمام علي الرّضى، ابن الإمام موسى الكاظم، ابن الإمام جعفر الصّادق ابن الإمام محمدّ الباقر ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين ابن الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه»(٥٩).

إنّ موقف الشيخ عثمان هذا من قضية الإمام المهدي عجل الله فرجه واعتقاده بأن المهدي عجل الله فرجه الشريف حيّ يرزق وأنه ابن الإمام العسكري الإمام الحادي

---

(٥٦) تنبيه الفاهم للشيخ عثمان، نقلاً عن M.A. AL- hajj, "hayatu B. sa'id: A Revolutinary Mahdist in the Western Sudan in Africa. 1971, pp. 129 - 130.

(٥٧) تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط الساعة، ص ١٣.

(٥٨) نصيحة أهل الزّمان، ص ٥٩.

(٥٩) نقلاً عن الشيخ محي الدين بن عربي في كتابه المرسوم بـ «الفتوحات المكية»،الباب السادس والستين وثلاثمائة.

عشر عند الإمامية رغم استناده إلى مصادر السنّة لم يحتمله البعض[٦٠] وهو العالم البارز والبعيد عن الأوساط الشيعية كلّ البعد، متشبثين بأنّ عقيدة الشيخ تعود إلى رجعة إمام اختفى ، الأمر الذي تبنّته الشيعة الإمامية بينما لم يولد الإمام بعد ولا يصح اعتباره من أولاد الإمام العسكري!

كذلك سعى الكثير من أصحاب الأقلام الإفريقية إلى أن يؤوّلوا كلام الشيخ والذي لا يقبل التأويل فيما حاول الآخرون أن يثبتوا أنّ الشيخ عثمان في أخريات سنوات عمره عدل عن موقفه القريب من الشيعة بحجّة أن الشيخ في قصيدتيه الفلانيتين : «تناسبوج» (العلاقات) و «بنغاري مهدي» (علوّ شأن المهدي) لم يتطرق لهذا الجانب من حياة المهدي عجل الله فرجه !![٦١].

هذا في حين أنّ الشيخ عثمان لم يتنازل عمّا قاله حول تحديد شخصية الإمام المهدي عجل الله فرجه وانتمائه إلى أهل البيت عليهم السلام باعتباره ابناً للإمام الحسن العسكري، ابن علي النقي عليهما السلام لا في الكتب التي صنّفها وسبق أن ذكرناها والتي ركزّ فيها على ما يتّصل بهذا الأمر ولا في هاتين القصيدتين، وإنما الذي استحدث هو تخلّيه عن ثقته بقول عبدالرحمن السيوطي حول التأريخ المحدّد السالف الذكر. وهو لا يمتّ إلى عقيدة الشيخ بقضية المهدية من وجهة نظر الشيعة بصلة أساساً.

يركزّ الشيخ عثمان في القصيدتين على أمرين :

١ ـ الوصف الدقيق لشخص المهدي عجل الله فرجه لإقناع الناس بأنه يفتقرها ولا تنطبق عليها.

٢ ـ بطلان تحديده وقت ظهور الحجة عجل الله فرجه .

كما هو معلوم عند الباحث المتعرّف على المواقف الشيعية حول هذه القضية أن القصيدتين ليس فقط لا توحيان بتراجع الشيخ عثمان عن عقائده حول المهدي عجل الله فرجه بل تعزّزان الموقف الشيعي في الأمر أيضاً. وهذا لأنّ مذهب الإمامية يؤكدّ أن الإمام المهدي عجل الله فرجه حيّ حالياً، ويرزق، فله ملامح ومواصفات جاءت بشكل

---

(٦٠) الآثار العقائدية لحركة الشيخ عثمان بن فودي في السودان، الأمين ابومنقا محمد، ضمن مقال قدّمه الكاتب إلى جامعة الخرطوم إحياءً لذكرى الشيخ عثمان بن فودي، ص ٢٤٧.

(٦١) المصدر السابق، ص ٢٠٠.

واضح ومحدّد في كثير من الروايات الصحيحة ، ولا تتكيّف هذه المواصفات المحدّدة وبسهولة على كلّ من يدّعي المهدية. كما لم تكن تنطبق على الشيخ عثمان نفسه. وسبق أن ذكرنا من كلمات الشيخ عثمان ما يرفض وبشدّة وحزم كونه المهدي، وكذلك دون تغيير في الموقف . يقول في إحد ى القصيدتين :

من يدّعي أنّني المهدي سيظهر كذبه عندما أوضح صفات المهديّ

وفي موضع آخر من القصيدة :

أحذّركم وأستحلفكم بالله العظيم أن تكفّوا عن القول بأنّني المهديّ(٦٢)

وأما عن أمر تحديد وقت ظهور المهدي فلم يتراجع الشيخ عن شيء من عقائده القريبة من عقيدة الإمامية في قضية المهدي ، بل تبنى في بداية الأمر تنبّؤ السيوطي في تحديد وقت الظهور الأمر المتعارض مع موقف الإمامية، وعاد إلى القول بأن الظهور ليس بحيث يعرف الإنسان وقته محدّداً. فلا أساس لقول من يزعم أن الشيخ تأثّر برأي الشيعة ثمّ عدل عنه في القصيدتين، وإنّما الذي عدل عنه هو ما يقوله السيوطي في توقيت الظهور وهو ما لا تقول به الإمامية.

إنّ الإمعان في القصيدتين يوضّح الكثير من الالتباسات :

كفّوا عن الكذب وعن اغتيابي
وتحديد وقت انتظار ظهور المهدي

إنّ أمور الساعة لا يعلمها إلا الله
كفوا عن القول بأن هذا هو عام المهدي

كفّوا عن تعيين مالم يعيّنه النبي
فقط عليكم بالتصديق بحقيقة مجيء المهدي(٦٣)

فلا نجد فيهما مايدلّ على عدول الشيخ عن شيء من عقائده في الإمام المهدي غير ما أسلفناه آنفاً.

جدير بالذكر أنّ الإعتقاد بالإمام المهدي عليه السلام لم يكن يقتصر على الشيخ

---

(٦٢) من قصيدة «بنغاري مهدي» (علق شأن المهدي) للشيخ عثمان بن فوديو والتي أنشدها باللغة الفولانية.
(٦٣) المصدر نفسه.

وإنما كانت هذه القضية من صميم عقائد القيادة بمن فيها الشيخ عثمان وأخوه الكبير وابنه وغيرهما من سائر الشخصيّات. فألّف الشيخ محمد بلّو بن الشيخ عثمان حول الفكر المهدوي مايلي من المؤلفات :

١ ـ القول المختصر في أخبار المهديّ المنتظر.
٢ ـ مفتاح السّداد.
٣ ـ علم الجفر.
٤ ـ كشف الخفيّ في أخبار الإمام المهدي.

وكتب الشيخ أبو بكر العتيق ابن الشيخ عثمان :

١ ـ وصية لأهل غواندو.

وكتب الشيخ أحمد الرفاعي ابن الشيخ عثمان :

١ ـ علامات خروج المهدي.

وألّف الشيخ سعيد بن محمد بلّو :

١ ـ كأس المحبة إلى أهل المودة.
٢ ـ صحيح الخبر في أمر المهدي المنتظر.
٣ ـ قصيدة الهجرة (بالفولانية).

وكتبت الأم مريم بنت الشيخ عثمان بن فودي :

١ ـ طريق الهجرة إلى المهدي[٦٤].

النهضة العثمانية والحركة الوهابية

لقد تزامنت حركة الشيخ عثمان الجهادية في السودان الغربي مع حركة محمد عبد الوهاب بمكة المكرّمة، الأمر الذي أدّى بالكثير إلى القول بأن الشيخ عثمان بن فودي انتهج في حركته منهج محمد بن عبد الوهاب[٦٥].

---

(٦٤) الشيخ عثمان بن فودي، المحور الرابع : الآثار العقائدية لحركة الشيخ عثمان بن فودي في سودان وادي النيل، من كلمة الدكتور الأمين أبو منقا وحمد، ص ٣٧٢.

(٦٥) مصطفى سعد، أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة الشيخ عثمان ين فودي الإصلاحية في غرب إفريقيا؛ وتأثر الدعوات الإصلاحية بدعوة الشيخ محمد بن بعد الوهاب، ص ٥ ـ ٧.

إلى جانب اولئك الذين صرّحوا بتأثير محمد بن عبد الوهاب المباشر على حركة الشيخ عثمان بن فودي اعتقد البعض بأن الأمر ليس دون التأثر بها ولكنّ التأثير لم يكن مباشراً[٦٦].

ولكنّ الحقيقة ورغم كلّ ما قيل في الأمر هي أنّ نقاط الافتراق في الحركتين أكثر من نقاط الالتقاء بكثير. إنّ الفوارق بينهما ناتجة من الخلافات الكبيرة بين الشيخ عثمان بن فودي الصّوفي المؤمن بالطّريقة القادرية ومحمد بن عبد الوهاب السلفي والمكفّر لمن يعتقد بما اعتقد به الشيخ عثمان وجماعته.

من الواضح أنّ الشيخ عثمان بن فودي وإلى آخر حياته لم يتراجع في شيء من عقيدته الصوفية ، فلا يقال بعدوله عن طريقته. بل أكثر من ذلك أنّه يبدأ حركته وفي حالة مكاشفية تحصل له بأمر من الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يقدم إليه سيفاً ليجاهد به في سبيل الله[٦٧].

مزيداً على هذا أن المسافة بين الشيخ عثمان ومحمد بن عبد الوهاب كانت شاسعة حيث لم يكن هناك من علاقة بينهما ، كما كانت البيئتان تختلفان في كلّ شيء. وهو ما لا يترك مجالاً للتبعية في الحركة ؛ لأنّ كلّ ظرف اجتماعي وبيئة بشرية تطلب نوعية خاصة في الانطلاق.

إضافة إلى هذا كلّه وأهم مما ذكرنا هو أن الحافز الرئيسي عند محمد بن عبد الوهاب يكمن في حركته نحو تغيير داخل الانتماء والمذهب ، فيما انطلقت نهضة الشيخ عثمان بن فودي ضدّ التيارات غير الإسلامية أولاً ثمّ الانحرافات الدينية والتقاليد الفاسدة التي يعبّر عنها الشيخ بالبدع.

ولا أعرف السبب في إلحاح البعض[٦٨] ليقولوا بتأثّر الشيخ عثمان بمحمد بن عبد الوهاب. حيث انتهى بهم الأمر إلى أن يعتقدوا بأن الشيخ عثمان بن فودي زار محمد بن عبد الوهاب في موسم الحج ، فيما لا يشك الباحث المتجرّد في أن الشيخ عثمان بن فودي لم يحجّ في حياته على الإطلاق ليلتقي به وبقادة حركته ورجال الدعوة

---

(٦٦) د. محاسن عبد القادر حاج الصافي، جهاد الشيخ عثمان بن فودي في غرب إفريقيا، ص ١.

(٦٧) محمد بلّو، إنفاق الميسور في تأريخ بلاد التكرور، ص ٥٨.

(٦٨) مصطفى سعد، أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في حركة الشيخ عثمان بن فودي الإصلاحية في غرب إفريقيا وكذلك: **الشيخ عثمان بن فودي مجدّداً** من عمل البرفسر زكريا بشير إمام، ص ١٦٢.

السلفية[٦٩].

على أن جهاد الشيخ عثمان ومراحل حركته فارغة تماماً من أي أثر ودليل على السلفية الوهابية.

إنّ أحد الكتاب المتحمسين لمحمد بن عبد الوهاب والذي أتعب نفسه ـ ومن دون فائدة ـ ليثبت أن الشيخ عثمان اقتدى بمحمد بن عبد الوهاب في حركته ، يقع في ارتباك حينما يحاول القول بتبعية الشيخ عثمان له حيث يقول :

«وليس لديّ شك في أن الشيخ عثمان والشيوخ الذين أخذ عنهم الدعوة والعلم كانوا على اتصال بحركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتقوا بدعاة هذه الحركة في أثناء وجودهم بالأراضي المقدّسة أثناء تأدية الحج والعمرة...».

وفي موضع آخر من الكتاب ينصّ على ما يدلّ على ترك الشيخ نهج محمد بن عبد الوهاب :

« وربّما كانت إحدى جوانب عبقرية الشيخ عثمان دان فودي وميله الشديد نحو التجديد والأصالة والاستقلال في الرأي، أنّه لم يلتزم بالسلفية ولم ينخرط كلية في اتّباع طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بل رأى منذ البداية أنّ أسلوب الشيخ محمد بن عبد الوهاب لايعطي للجوانب الروحية والوجدانية كبير تقدير في أساليب الدعوة إلى الله» .

وفي باب آخر يقول نفسه :

«... ولم يكن هذا الانتماء إلاّ إشارة واضحة إلى أن الشيخ عثمان بن فودي لم يشأ أن يتبع الطريقة السلفية الوهابية في كلّ شأن من شؤون الدعوة الإسلامية»[٧٠].

مما يثير الاستغراب هو أن الشيخ عثمان على أساس هذا الاعتراف من قِبل من يدّعي اقتفاءه لحركة الوهابية ، إن لم ينتهج في حركته مناهج محمد بن عبد الوهاب السلفية وكذلك لم يسافر إلى مكة ليحجّ بل لم يغادر المنطقة الغربية من القارة الأفريقية[٧١]فما هو الذي يجعل البعض يؤمنون بمثل هذه الأفكار؟!

---

(٦٩) علي أبو بكر، الثقافة العربية في نيجريا، ص ١١١.

(٧٠) الشيخ عثمان دان فودي مجدّداً لزكريا بشير إمام، ص ١٦٢ (ضمن مقال قدّمه الكاتب إلى جامعة إفريقيا العالمية والذي طبع ضمن مجموعة ضخمة من مقالات حول شخصية الشيخ عثمان بن فودي).

(٧١) علي أبو بكر، الثقافة العربية في نيجريا، ص ١١١.

نجد من الكتاب العرب(٧٢) والغربيين(٧٣) من يحاول إثبات هذا الادّعاء الموهوم ، فيما لم نعثر بعد على ما يثبت محاكاة الشيخ للحركة الوهابية أو تقليدها في شيءٍ من حركته! صحيح أن الأستاذ الشيخ عثمان بن فودي تقدّم الشيخ في طرح الفكرة الإصلاحية ـ كما مرّ سابقاً ـ وكما يقال حجّ والتقى ببعض قادة الدعوة السلفية ، ولكنّ الذي يجمع بين الحركتين لتشكّل نقاط الالتقاء ، مفقود على أي حالٍ. فلا يمكن قبول مثل هذه الادعاءات الضعيفة وغير الموضوعية.

وبطبيعة الحال إن هذا لا يعني أنه لم يتأثّر بأيّ تيّار من التيارات الفكرية الإصلاحية المختلفة التي كانت سائدة في السودان الغربي. وليس هناك شك في أنّه تأثّر بتعاليم أستاذه جبريل بن عمر وهو ما سبق أن أتينا ببعض ما يدلّ عليه وعلى عمق المحبة التي تربط الشيخ عثمان علمياً بأستاذه هذا. كما تأثّر على ما يبدو بتعاليم محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني. وأن كثرة احتجاج قيادة الجهاد بكلماته وفتاواه يدلّ وبكل تأكيد على نوع من التأثر به. كما لا نشك في أنّ مثل هذه التأثيرات لم تكن لدرجة تفرغ الشيخ وحركته من استقلال في الهوية وأصالة في الفكر والرأي والتعبير.

نختم هذا البحث بكلمات للشيخ عثمان ننقلها من كتاب «نصيحة أهل الزّمان» فهي حول الاعتقاد بكفر المسلم :

«... ولا يجوز تكفيرهم لأحد من المسلمين، فإن كفّروا المخالفين لما اعتقدوه واعتقدوا كفرهم بسبب أنهم خالفوا معتقدهم الباطل فقد كفروا لأنّ من اعتقد أن المسلم كافر فقد اعتقد دينه كفراً»(٧٤).

وفي صفحة أخرى يصرّح :

«... فإن صرّحوا باعتقاد كفر جميع المسلين المخالفين لمعتقدهم ورأوا أنهّم خرجوا من الإسلام بذلك وصاروا كفرة لذلك، فقد كفروا بهذا الاعتقاد الباطل...»(٧٥).

---

(٧٢) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، ص ١١٩؛ وسير توماس ارنولد، الدعوة إلى الاسلام، ص ٢٧٤؛ عبد الرحمن زكي، تأريخ الدول الإسلامية السودانية، ص ٣٧؛ عبد الحميد بخيت، المجتمع العربي الإسلامي، ج ٢، ص ٢٧٩.

(٧٣) T.W. Arnold: The preaching of ISLAM.p.265 ـ شمارة ٤

(٧٤) الشيخ عثمان بن فودي، نصيحة أهل الزّمان، ص ٧٥.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ٧٧.

كما يرفض الكاتب الشهير عبد الله آدم الآلوري من نيجريا في كتابه «الإسلام في نيجريا» وبشكل قاطع أن تكون حركة الشيخ عثمان بن فودي وليدة التأثر بحركة محمد بن عبد الوهاب، مستدلاً بما يلي :

١ ـ لم يرد ذكر محمد بن عبد الوهاب في مؤلفات ابن فودي وأخيه وابنه ولا أحد من تلاميذهم. ولو اتصلوا بدعوته وبه، لذكروا ذلك في أشعارهم ومؤلفاتهم كما يذكرون المشايخ الذين نقلوا عنهم كابن الحاج والأزرق والسيوطي ، وقلّما ذكروا ابن تيمية وقد ذكروا من تشرفوا بلقائه من العرب كالشيخ محمد المختار الكنتي.

٢ ـ أن ابن فودي مالكيّ المذهب، أشعريّ العقيدة، قادريّ الطريقة وابن عبد الوهاب حنبلي سلفي ولا طريقة صوفية له.

٣ ـ كان ابن فودي يعتقد في التوسل بالنبي والولي، وله في قصائده توسلات كثيرة جداً بالنبي صلى الله عليه [وآله] وسلم والصحابة والأولياء، وقد عرّب أخوه عبد الله قصيدة أعجمية نظمها في التوسل بالشيخ عبد القادر الجيلاني يقول فيها :

يارب عالم باطن كالظاهر　　أجبِ الذي يدعو بعبد القادر

ثم إنّ الدعوة الوهابية كان أول قيامها بنجد ولم تنتشر في الحجاز مما يجعلها مقبولة أو معروفة في العالم الإسلامي قبل قيام دولة ابن فودي(٧٦).

النتاجات الفكرية للشيخ عثمان بن فودي

لا يسعنا ـ من دون شك ـ أن نتطرق لكل آثار الشيخ عثمان ولو بشكل غير مُسهب وعابر. فلنمرّ على أسماء مؤلفاته التي تحظى بموضوعية كبيرة وتتمتّع بعمق في الفحوى وجمال في التعبير وأصالة في الموضوع، كما تشير إلى أن ثورة الشيخ عثمان الإصلاحية انطلقت على أساس من العلم والوعي الإسلامي الأصيل :

١ ـ اتّباع السنة وترك البدعة.

٢ ـ اتّباع الكتاب والسنة والإجماع ودليل اجتناب البدعة لمن يدين الاسلام.

٣ ـ الأجوبة المحرّرة من الأسئلة المقررة في وثيقة شيصمص.

٤ ـ إحياء السنة وإخماد البدعة.

---

(٧٦) عبد اللطيف سعيد، سيرة الشيخ عثمان بن فودي، ص ٤٠ (نقلاً عن الإسلام في نيجريا للأستاذ عبد الله آدم الآلوري).

٥ ـ آداب العبادات والعادات.
٦ ـ إرشادات فقهية.
٧ ـ إرشاد الأخوان إلى أحكام خروج النسوان.
٨ ـ إرشاد الأمة إلى تيسير الملّة.
٩ ـ إرشاد السالك الرباني إلى أحوال عبد القادر الجيلاني.
١٠ ـ إرشاد العباد إلى أهم مسائل الجهاد.
١١ ـ إرشاد أهل التفريط والإفراط إلى الصراط.
١٢ ـ أسانيد الضعيف المتشفع بمشافعة أحمد الشريف.
١٣ ـ أسانيد الفقير المعترف بالعجز والتقصير في بعض ما أخذ بالقراءة أو الإجازة.
١٤ ـ الأصول التي في كتاب العلامة أحمد الزورق.
١٥ ـ أصول الدين.
١٦ ـ أصول الشريعة.
١٧ ـ أصول الطريق.
١٨ ـ أصول العدل لولاة الأمور وأهل الفضل.
١٩ ـ أصول الولاية وشروطها.
٢٠ ـ إعداد الداعي إلى الدين.
٢١ ـ إعداد الدعاة.
٢٢ ـ إفادة الإخوان.
٢٣ ـ إفهام المنكرين عليّ فيما أمروا الناس به وما نهوهم عنه.
٢٤ ـ اقتباس العلم.
٢٥ ـ الله إن دار تريم فيداج دورما (قصيدة بالفلفدي).
٢٦ ـ أمر أشراط الساعة.
٢٧ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٢٨ ـ الأمر بموالاة المؤمنين والنهي عن موالاة الكافرين.
٢٩ ـ إن غت الله. (قصيدة بالفلفدي).
٣٠ ـ إن دوم ينغ الله همايتا. (قصيدة بالفلفدي).
٣١ ـ الله شاهيد. (بالفلفدي).
٣٢ ـ بسم الله يارحمن. (بالفلفدي).

٣٣ ـ بنج غد. (بالفلفدي).
٣٤ ـ بنج هوسا. (بالفلفدي).
٣٥ ـ بيان البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في أبواب الملّة المحمدية.
٣٦ ـ بيان وجوب الهجرة على العباد وبيان وجوب نصب الإمام وإقامة الجهاد.
٣٧ ـ بيان وجوب الهجرة وتحريم موالاة الكفرة.
٣٨ ـ تبت حقيقة. (قصيدة بالفلفدي).
٣٩ ـ تبشير الأمّة الأحمدية لبيان بعض المناقب القادرية.
٤٠ ـ تبصرة المبتدئ وتذكرة المنتهي.
٤١ ـ تحذير أهل الإيمان من التشبيه بأهل الكفر والعصيان.
٤٢ ـ تحذير الإخوان من المهدية الموعودة آخر الزمان.
٤٣ ـ تحفة الحبيب للحبيب.
٤٤ ـ تحقيق العصمة لجميع طبقات هذه الأمة.
٤٥ ـ تخميس أيا من له إعلاء العلاء.
٤٦ ـ تخميس تكدوم الله.
٤٧ ـ ترغيب عباد الله في حفظ علوم دين الله.
٤٨ ـ ترويح الأمة ببيان تيسير الملّة.
٤٩ ـ تطبيب قلوب الأمة الأحمدية بذكر بعض القصائد الأحمدية.
٥٠ ـ تعليم الإخوان بالأمور التي كفرنا بها ملوك السودان.
٥١ ـ تلخيص أسرار كلام المحاسبي.
٥٢ ـ تمييز المسلمين من الكافرين.
٥٣ ـ تمييز أهل السنة وأنصار الرحمن.
٥٤ ـ تنبيه الإخوان على أحوال أرض السودان.
٥٥ ـ تنبيه الإخوان على جواز اتخاذ المجلس لأجل تعليم النسوان علم فروض الأعيان من دين الله تعالى الرحمن.
٥٦ ـ تنبيه الأمة على قرب هجوم أشراط الساعة.
٥٧ ـ تنبيه الجماعة على أحكام الشفاعة.
٥٨ ـ تنبيه الحكام.
٥٩ ـ تنبيه الطلبة على أنّ الله معروف بالفطرة.

٦٠ ـ تنبيه الغافلين.
٦١ ـ تنبيه الغافلين على حكم تأريخ الدنيا.
٦٢ ـ تنبيه الغافلين وأحاديث السلف الصالح.
٦٣ ـ تنبيه الغافلين وتنظيم الأخبار وبدع الآثار.
٦٤ ـ تنبيه أهل الفهوم على وجوب اجتناب الشعوذة والنجوم.
٦٥ ـ تنزيه ربنا القدوس على كل ما مخطر في النفوس.
٦٦ ـ توفيق المسلمين على حكم مذاهب المجتهدين الذين كانوا من أهل السنة المتقين.
٦٧ ـ جمع قصص فيها ذكر بعض أبيات المحصل لابن زكريا.
٦٨ ـ حصن الإفهام من جيوش الأوهام.
٦٩ ـ حقيقة الإيمان والإسلام.
٧٠ ـ حكم جهاد بلاد الهوسا.
٧١ ـ الحمد لله دوكلماج بسراك. (بالفلفدي).
٧٢ ـ الخبر الهادي إلى أمر الإمام المهدي.
٧٣ ـ داليّة الشيخ عثمان. (القصيدة الداليّة).
٧٤ ـ دعوات الشيخ.
٧٥ ـ دعوة العباد إلى كتاب الله.
٧٦ ـ دلائل الشيخ عثمان.
٧٧ ـ دواء الوسواس والغفلات في الصلاة وقراءة القرآن والدعوات.
٧٨ ـ دولايل. (قصيدة بالفلفدي).
٧٩ ـ رجوع الشيخ السنوسي عن التشديد إلى التقليد في قواعد التوحيد.
٨٠ ـ رسالة إلى الشيخ محمد الأمين الكانمي.
٨١ ـ رسالة إلى يعقوب (في مدح القرآن الكريم).
٨٢ ـ رفع الاشتباه.
٨٣ ـ رفع الشبهات بالتشبّه بالكفرة والظلمة.
٨٤ ـ سراج الإخوان في أهمّ ما يحتاج إليه في هذا الزمان.
٨٥ ـ السلاسل الذهبية للسادات الصوفية.
٨٦ ـ السلاسل القادرية.

٨٧ ـ سَوق الأمة إلى اتّباع السنة.
٨٨ ـ سوق الصديقين إلى حضرة القدسي.
٨٩ ـ شفاء الغليل فيما أشكل من كلام شيخ شيوخنا «جبريل بن عمر».
٩٠ ـ شفاء الناس من الداء.
٩١ ـ شفاء النفوس.
٩٢ ـ شمس الإخوان يستضيئون بها في أصول الأديان.
٩٣ ـ طريق الجنة.
٩٤ ـ عقيدة العوام.
٩٥ ـ علوم المعاملة.
٩٦ ـ عمدة البيان في العلوم التي وجبت على الإيمان.
٩٧ ـ عمدة العباد فيما يدعي الله به من جهة الصلاة والصوم وتلاوة القرآن.
٩٨ ـ عمدة العلماء.
٩٩ ـ عمدة المتعبدين.
١٠٠ ـ فائدة.
١٠١ ـ الفتاوى للسائل.
١٠٢ ـ فتح البصائر لتحقيق علوم البواطن والظواهر.
١٠٣ ـ الفرق بين علم أصول الدين وبيان علم الكلام.
١٠٤ ـ الفرق بين ولاية أهل الإسلام وبين ولاية أهل الكفر.
١٠٥ ـ فكافكار. (بالفلفدي).
١٠٦ ـ فند نور. (بالفلفدي).
١٠٧ ـ قصيدة الشيخ عثمان إلى مختار الكنيّ.
١٠٨ ـ قطع الخصام الذي يقع بين طلبة علم الكلام.
١٠٩ ـ قواعد الصلاح إلى الفلاح .
١١٠ ـ قواعد الصلاة.
١١١ ـ قواعد طلب الوصول إلى الله.
١١٢ ـ كتاب الآداب.
١١٣ ـ كتاب الأصول التي في كتاب العلامة الفاسي.
١١٤ ـ كتاب التفرقة بين الوعاظ المهتدين وبين الوعاظ المذمومين.

١١٥ ـ كتاب الفرق.
١١٦ ـ كتاب المسائل.
١١٧ ـ كتاب الورد.
١١٨ ـ كتاب مدة الدنيا.
١١٩ ـ كشف ما عليه العمل من الأحوال ومالا.
١٢٠ ـ كف الطالبين عن تكفير عوام المسلمين.
١٢١ ـ كفاية المسلمين.
١٢٢ ـ كفاية المهتدين .
١٢٣ ـ المحظورات.
١٢٤ ـ مديت الله جنلك جيد وسيلة. (بالفلفدي).
١٢٥ ـ مرآة الطلاب في مسند أبواب دين الله الوهاب.
١٢٦ ـ مرآة الفرائض.
١٢٧ ـ مسائل مهمة يحتاج إلى معرفتها أهل السودان.
١٢٨ ـ مصباح المهتدين.
١٢٩ ـ مصباح أهل هذه الأزمان من أهل بلاد السودان.
١٣٠ ـ معراج العوام إلى سماء علم الكلام.
١٣١ ـ ملخص من أسرار كلام الشيخ الفقيه المحاسبي.
١٣٢ ـ منهاج العابدين.
١٣٣ ـ مواضع أوهام الطلبة في كتب الكلام لعلماء الملّة.
١٣٤ ـ مورنور. (الفلفدي).
١٣٥ ـ حيتي بند كموج (بالفلفدي).
١٣٦ ـ ميتيم الله (بالفلفدي).
١٣٧ ـ ميتيم الله يامحمود. (بالفلفدي).
١٣٨ ـ ميتيم الله ياحواب غيتي. (بالفلفدي).
١٣٩ ـ نجم الإخوان يهتدون به بإذن الله في أمور الزمان.
١٤٠ ـ نصائح الأمة المحمدية لبيان حكم الفرق الشيطانية التي ظهرت في بلادنا السودانية.
١٤١ ـ نصيحة (منسوبة إليه).

١٤٢ ـ نصيحة أهل الزمان لأهل السودان من الأعراب والأعجام في جميع البلدان .
١٤٣ ـ نور الألباب.
١٤٤ ـ هداية الطالبين.
١٤٥ ـ هداية الطلاب.
١٤٦ ـ هل لي من مسيرة نحو طيبة سرعة.
١٤٧ ـ وثيقة الإخوان لتبيين دلالات وجوب اتباع الكتاب والسنة والإجماع.
١٤٨ ـ وثيقة الجواب على سؤال دليل منع خروج النساء.
١٤٩ ـ وثيقة إلى جماعة المسلمين.
١٥٠ ـ وثيقة أهل السودان.
١٥١ ـ ولما بلغت ستاً وثلاثين سنة .
١٥٢ ـ ولما بلغت في الورد العثماني القادري.
١٥٣ ـ يالله. (قصيدة بالفلفدي)(٧٧).

ينبغي القول هنا أنّ كثيراً من مؤلفات الشيخ عثمان لا تتجاوز عن كرّاسات وكتيبات. كما لا يبلغ عدد الكتب المطبوعة والمحقّقة منها عشرة كتب. والكتب الأخرى مازالت مخطوطة وتستحق التحقيق والإحياء، باعتبارها ثروة كبيرة من شأنها أن ترسم خطوطاً عريضة سارت عليها دولة إسلامية عظيمة أعادت إلى المسلمين عزتهم وإلى الإسلام شوكته في غرب افريقيا. الحكم الذي استمّر لأكثر من قرن.

مهما يكن من أمر فممّا لا شكّ فيه عندنا أنّ كتاب «بيان وجوب الهجرة» هو عمدة مؤلفات الشيخ دان فودي لأهميته في بيان سياسة الدولة وفلسفة الحكم عنده وهي ذروة الأمر وإليها تنتهي مناهج الدعوة والتعبئة والجهاد. فإن إقامة أمر الله وسيادة منهج الإسلام هي من إعلاء كلمة الله في الأرض وهي التمكين للعباد الصالحين ، كما وعد المولى عز وجل في القرآن الكريم وهي إقامة العدل وإشاعة السلام والأخوة والمسرّة بين المسلمين خاصة والناس عامة ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾(٧٨).

في الحقيقة تزداد المعرفة الواقعية بسمات الحركة الفكرية العثمانية وانجازاتها وتوجهها بالنظر في مؤلفات هذا الثالوث المبارك ، الشيخ وابنه وأخيه ، وتتأكد بالنظر

---

(٧٧) عبد القيوم عبد الحليم الحسن، مخطوطات الفوديين، ص ١٤.
(٧٨) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

في ما عاصرها وأعقبها من مؤلفات وفي المخطوطات المترافرة لدينا وما نشر منها من هذه الأعمال والمشار إليها ما يؤكد أنّ تلك الحركة الاسلامية العربية عميقة الجذور لمعرفتها وتداولها لأهمّ ما يعرف من التراث الاسلامي والعربي. وما يلفت النظر المتمعن في مفرداتها ليس كمّها فهو كثير، وليس تنوعها فهو كثير أيضاً. وإنّما التزامها وأصالتها وجدّتها وتأسيسها على ركائز متينة من القرآن والسّنة والفقه الإسلامي أصولاً وفروعاً[٧٩].

تجدر الإشارة هنا إلى أن للشيخ عبد الله بن فودي أخي الشيخ عثمان أكثر من (١٠٠) تأليف تتراوح مواضيعها ما بين فقهٍ وأصولٍ وسياسة وأخلاق وشعر وعقائد وغيرها من عشرات الفروع الدينية الملائمة لإصلاح المجتمع ولاسيما الظروف التي كانت تعاصر الشيخ عبد الله المعروف بنادرة الزمان. كذالك سجّل البعض أكثر من ١٥٨ أثراً علمياً لمحمد بلّو بن عثمان دان فودي[٨٠].

وأخيراً عندما قامت الدولة الإسلامية الكبرى في السودان الأوسط والمنطقة الغربية من القارة الإفريقية وبدأت تنتشر في باقي المناطق الإفريقية وتكون مثالاً رائعاً للمجتمعات الإفريقية الأخرى والتي كانت تعاني مما عانى منه المجتمع الذي عاش فيه الشيخ عثمان دان فودي وهو استطاع المعالجة من خلال الجهاد المقدس وإرساء قواعد قدرة إسلامية حكمت البلاد لأكثر من قرن، تزعزعت الخطط الاستعمارية والشيطانية والتي كانت تهدف إلى نهب الخيرات واستثمار الطاقات البشرية المستضعفة. فخطط الاستكبار الانجليزي لإزاحة هذه الدولة الإسلامية وتعطيل مسيرتها مستخدماً الأساليب المتعددة، ابتداءً من الإجراءات السرّية والتجسّسية للعثور على المعلومات الكافية وانتهاء بالعمليات العسكرية والإجراءات المسلحة وتوجيه الضربة النهائية.

ومع الأسف الشديد أنه استطاع أخيراً القضاء على هذه الدولة . ولا يتسنى لنا الآن دراسة أسباب سقوط الخلافة الإسلامية في سوكوتو عاصمة الشيخ عثمان دان فودي والبحث عن العناصر المؤدية إلى انهزام الجيوش الإسلامية واستشهاد الآلاف من قادة الحركة وجنودها.

مهما يكن من أمر وبقطع النظر عمّا انتهت إليه الدولة الإسلامية في شمال نيجريا

---

(٧٩) عمر أحمد سعيد وعبد القيوم عبدالحليم الحسن، كتاب الشيخ عثمان بن فودي، ص ٢١٩.
(٨٠) المصدر السابق، ٤٠٩.

والتي صارت قدوة حسنة اقتدت بها الكثير من المجتمعات الإفريقية، فإن الشيخ المجاهد عثمان بن فودي أسّس حركة فكرية، قامت على تحرير العقلية الإسلامية من سلطة الإلحاد ، مما أدى إلى بث قيم الدينية في الشخصية الإفريقية وإشاعة المعارف الإسلامية وسط الذكور والإناث مما أدّى إلى محو أمية الكثيرين وإلى تعليم النساء في زمن ساد فيه الجهل والخرافة الشعوذة في منطقة متخلفة ـ غرب إفريقيا ـ بعيدة عن مراكز الإشعاع الديني المعروفة.

... نهض الشيخ المجاهد عثمان بن فودي بواجب الجهاد وأحيا هذه الفريضة بعد أن وضع لها منهجاً برز في كتبه وأحاديثه.

اعتمد اللغة العربية التي كان يجيدها كتابة وكلاماً مع أنه لم يزر العالم العربي ولم يحجّ، اعتمدها لغة رسمية ونشر آدابها وأصبحت لغة العبادة والجهاد والتجارة والمعاملات والثقافة والفكر.

... نظر إلى مملكته بوصفها ثغراً من ثغور الإسلام يحيط به محيط من الملل الأخرى وكان يسعى لوضع النواة الأولى لمرتكزات انطلاق تهيئ غرب إفريقيا للالتقاء بالمد الإسلامي المتوقع في مراكز العالم الإسلامي مثل الحجاز والشام والسودان وغيرها، حتى توهم البعض من أتباعه أنه هو المهدي . فأنكر ذلك وأفهمهم أنه مجرد جنديّ في صفّه ، ومهمّته تهيئة الأوضاع لظهوره .

... أسّس دولة إسلامية استمرّت بعد وفاته قرابة مئة عام (١٨١٧ ـ ١٩٠٣م) حينما قام بإسقاطها وتخريبها الاستعمار الانجليزي ولكن ما يزال تراث المجاهد الفقيه الشيخ عثمان بن فودي راكز الأساس بوصفه خط مقاومة الثقافة الاستعمارية بكامل نهضتها في غرب إفريقيا ومواجهتها لحركة اليقظة الإسلامية.

... أقام الشيخ عثمان دولة إسلامية تستند إلى مفهوم دار الإسلام والأمة، وقام عقدها الاجتماعي على البيعة.

ولذلك فإن حركة الدعوة الإسلامية على امتداد العالم تريد التواصل وتريد أن تكتشف نموذج القيادة في التجارب الإسلامية المختلفة. حتى تستطيع أن تبني على جهودها الفكرية ومكاسبها العلمية والعملية والسياسية صرح الحركة الإسلامية

وصرح حركة التجديد الديني في إفريقيا[٨١].

واذا أردنا اقتضاب الحركة الجهادية للشيخ وخلاصة الإنجازات والمكاسب الضّخمة والعطاءات الكبيرة التي نعمت بها الأمة الإسلامية فنقول بأنّه كان جندياً من جنود الإمام المهدي عجل الله فرجه ومن الممهدين لظهور ، تماماً مثل ما تعتقد به الإمامية وهو ما يمّثل الركن الأساسي والهدف الأسمى لحركته.

فسلام عليه يوم وُلد ويوم مات ويوم يُبعث حياً.

(٨١) عثمان سيد أحمد إسماعيل البيلي، ملاحظات وخواطر حول الحياة الفكرية في الخلافة العثمانية ـ الصكتية،ص ٢١٠.